ماجد شيحة

شبح عبد الله بن المبارك

رواية

دار الشروق

مكتبة
t.me/soramnqraa

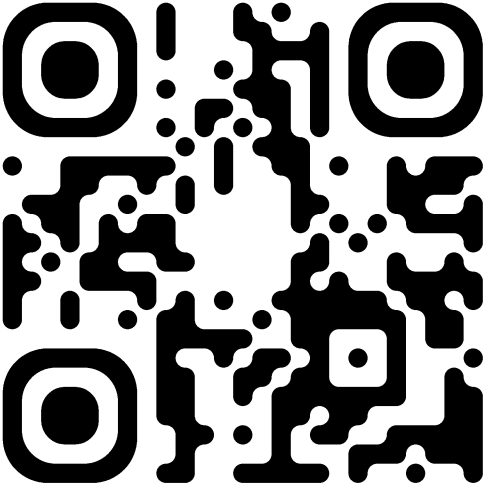

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

شَيخ عَبد الله

بنِ المُبارك

مكتبة
t.me/soramnqraa

شبح عبدالله بن المبارك

ماجد شيحة

الطبعـة الأولى ٢٠٢٤

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

تصميم الغلاف: إسلام أحمد

رقـم الإيداع ١٠٢٦٤/ ٢٠٢٤
ISBN 978-977-09-3898-0

© دار الشروق

٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
/dar.elshorouk /Darelshorouk

شيحة، ماجد
شبح عبد الله بن المبارك / ماجد شيحة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٤
٢١٢ ص، ٢٠سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٨٩٨٠
رقم الإيداع ١٠٢٦٤/ ٢٠٢٤
١ - القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

ماجد شيحة

مكتبة
t.me/soramnqraa

شيخ عبد الله بن المبارك

رواية

دار الشروق

إلى أمي
كل ما أكتب من نسيج حزنك

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ الباب المقفول يرد القضاء المستعجل.

تقول أمي، تصوب النظر إلى وجهي، وتبتسم، كأنها تعتذر، وتتوه في الاحتمالات.

مجرد افتراض، فالافتراض هنا هو متن الحكاية، وهامشها المسند، والحكاية تُروى عبر افتراضات تطرحها الحقيقة، والمتن أن أمي أيقظها دق على باب بيتنا المغلق، والافتراض: ماذا لو ظلت نائمة بدورها، أو استيقظت ولم تفتح الباب؟ فمن يدري من يدق الباب قبل منتصف الليل بقليل؟ أو فتحت الباب واعتذرت للطارق أنني نائم، وأن نومي ثقيل، وإيقاظي متعذر؟ ماذا لو لم تدعُه للدخول، وانصرف خائبا؟ هل كان سيذهب إلى حال سبيله؟ وما كنت، أنا، راويا لهذه الحكاية.

قالت أمي وهي توقظني: الأستاذ يريدك، ثم انصرفت.

عندما رأيت وجهه لم يبدُ لي أن خلفه حكاية طويلة، لا شيء يدل على أنه تقصد المجيء إليَّ أنا بالذات، ولولا توقيته لقلت إنه كان يمر فتذكر أمرا، فهذه أول زيارة له، بالرغم من صلتنا التي ظلت تتوثق عبر الأشهر الأخيرة، والتي كانت محل غبطة أمي

وأبي: ابننا يمشي مع الأستاذ، عند الأستاذ، سهران مع الأستاذ، ولكن دوام الحال من المحال، سرعان ما ستنقلب هذه العلاقة إلى مثار سخط لا ينقطع.

ـ ليتني ما فتحت الباب. تقول أمي مفصحة أكثر.

يظل مجرد افتراض أيضًا، خيطًا ممتدًّا من كلمة (لو) ليغزل أحداثًا لن تحدث، أو ينقض أحداثًا حدثت بالفعل، ولقد حزنت على أشياء كثيرة، لكن الحزن على الأمور التي لم تكتمل يظل أشدها وطأة، حزنًا بلا تبرير ولا علاج، وكلما تقدم العمر وتعتقت الذكريات في الرأس دوختك رائحتها، وتعبأت بالمجاز، وتحول هذا الحزن ليشبه أكثر الحزن الكوني المصاحب لمئات الكوارث الدقيقة أو الهائلة التي تحدث بلا صوت ولا دخان، كأن يدوس جاهل على حفرية قيمة فيهشمها، أو يقتل طفل عابث فراشة نادرة، أو يرف جفنا عالم فلك في أثناء وميض نجم ينفجر.

أتعجب أن أمي عرفته رغم الظلام وكلل البصر، ودعته بالأستاذ، وهو اللقب الذي سأظل أسمعه مرارا وتكرارا فيما بعد في جمل عديدة: (ما الذي قاله لك الأستاذ؟ ماذا أعطاك؟ ألم يخبرك الأستاذ إلى أين سيذهب؟)؛ فالباب الذي فتحته أمي جعلني شاهدا على لحظة أخيرة في حياة رجل بدأ الجميع ـ فجأة ـ في الاهتمام به، أو كان مهمًّا وأصبح أكثر أهمية، يطلق عليه الناس لقب الأستاذ، منزوعا من اسمه، حتى أمي التي تحب

أن تنادي الناس بأمهاتهم وآبائهم: يا ابن فلان أو فلانة، كانت تدعوه بالأستاذ.

رجل يعرفه الجميع إذن، يحترمونه، يبتسمون إذا مر بهم، وقد قالوا للغرباء إلى حد أن أصابهم الملل: هذا هو الأستاذ، ألا تعرفه؟ ابن رجل فلاح، وصار أستاذا في الجامعة.

* * *

إذن، كان الفعل أسهل من مجرد شرحه في كلمات وعبارات، كالأحداث التي تبدأ صغيرة ثم تنجب كوارث. أتى الأستاذ ودق الباب ففتحت أمي وأدخلته، ربما لو كان الأمر أكثر تعقيدا أو صعوبة لحلا لي الظن أنني ـ في هذه الليلة البعيدة ـ كنت طوق نجاة له، لو رفضت أمي وأصر، لو أغلقت الباب وعاود الدق، وقال لها إنه يريدني في مسألة حياة أو موت، أريده هذه الليلة بالذات والأمر لا يحتمل التأجيل، ولكن ـ حكت أمي ـ أن الدق على الباب كان دقًّا لا يوقظ نائما، دقًّا يخبرنا ويخيرنا: لو أنكم مستيقظون فافتحوا وإلا انصرفت. حكت أن الأستاذ سألها عندما فتحت: فلان موجود، كأن من الطبيعي أن يتواجد الأشخاص خارج بيوتهم في منتصف الليل، أو أن الخجل من توقيت مجيئه أطاح بالمنطق الطبيعي للكلام عنده، فعندما نزور شخصًا في وقت كهذا يجب أن تكون علاقتنا به قوية، ليس معه فقط، بل مع أفراد عائلته أيضًا، ولو سألني أحد قبل أن يدق الأستاذ

الباب: ما نوع علاقتك به؟ لاحترت في إجابته؛ فالصداقة هي علاقة دائرة على ممارسة أمر بشكل متكرر، فالبعض أصدقاء طاولة، أصدقاء قهوة ورغي وقيل وقال، أصدقاء أنفاس نارجيلة، أصدقاء مزاج خاص، البعض أصدقاء مسجد، طابور خبز، عمل، مهنة، هواية، عادة، وسيلة مواصلات، أصدقاء لأنهم جيران، أصدقاء لأن زوجاتهم صديقات، أو أولادهم أصدقاء، الأسباب عديدة، ولكن أنا والأستاذ كانت لدينا علاقة دائرة على تكرار أمر غريب، ممارسة لعبة الشاك والمتيقن، يطرح الأستاذ شكوكه وأفندها له، ليس معنى هذا أن الأستاذ مهجوس بصفة الشك المستمر وأنا أتمتع باليقين التام، ولكنها أزمة مواضع ليس إلا، والمواضع التي نشغلها في مساحات الحياة متنوعة، أقصد معظم الناس، أغلبهم، يحبون أن يلعبوا هذه اللعبة، تغيير المواضع، حسب الطرف المقابل، حسب موقعه، وملابسات معرفتنا به، ورغبتنا في إن كنا نريد أن نفرض الوصاية أو تُفرض علينا، إن كنا سنهاجم أم ندافع، إن كنا سنستشهد تحت وطأة التطور والحداثة أم سنلعن الجهل، ربما لو كنت طالبا لدى الأستاذ للعبَ هو دوري، دور المتيقن، لا أعرف، ولكن توزيع الأدوار ليس رغبة شخصية خاضعة للهوى، إنها لحظة قدرية، كالمصير، ولقد وجد الأستاذ نفسه في موضع المستنير، الأستاذ الجامعي، الذي يجب أن ينقي الدين من الخرافات، فوجدت نفسي ـ أتوماتيكيًّا ـ لاعبا لدور الأصولي الشاب، المتعلم بشكل لا يجعله ينبذ غرابة الدين

أو يطعمه كاملا للمنطق والعقل، كأشياء كثيرة في الحياة، أرفض أن أبحث فيها عن المنطق، كرغبة أمهاتنا في أن لا نكنس البيت ليلا، وأن نسمي الحيوانات الخبيثة بالفاسقة أو المنهزمة أو التي لا تُسمى، فالإنسان منا يحتاج إلى وجود غيبيات كهذه ليحك فيها إيمانه من وقت لآخر ليرى إن كان حقيقيًّا أم مزيفًا.

بدأنا بالكلاسيكيات، حديث غمس الذبابة في إناء الشرب إذا سقطت فيه، هل عذاب النار ونعيم الجنة حقيقيان، أم أنهما مجاز على شيء آخر لا يتصوره العقل البشري؛ وجود الله وكينونته؟ وهل الإنسان مخير، أم مسير؟ واذا كان مسيرا، فلماذا يعاقب على ذنوبه؟ أما إذا كان مخيرًا كما تقول، فلماذا كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم؟ وهكذا. انتهينا إلى شكوك لم يسبقنا إليها أحد، وأظن ـ وأنا حزين لهذا الظن ـ أنه كانت لدينا لذة خفية في اكتشاف مواضع جديدة للشك، في أن ننقض ونقيم بلعبة لفظية مسألة كبيرة كالدين، ولو كان خلفنا ملايين المؤمنين والشاكين يتابعون وينتظرون نتيجة هذه المباراة ما حميت أكثر مما هي بالفعل.

* * *

ومعظم شكوك الأستاذ لم تنبع من قراءات، سواء كانت قراءات في الدين أو ضد الدين، لم تكن شكوكًا نابعة من أصول، بل شكوك نابعة من ذوق وحدس، ومعظم شكوكه تبدأ بعبارات ك (لا ينبغي، لا يمكن أن يكون).

لذا أشك أن الأستاذ قرأ حكاية عبد الله بن المبارك مع المرأة صاحبة الدجاجة الميتة في كتاب، ولكنه ـ بطريقة ما ـ كان يعرفها، وكعادة الذين يعرفون أو يقرءون في الدين قليلا، تكون استنتاجاتهم شاسعة ومتعددة، وأذهانهم حرة والدين كاملًا، يستطيع أن يبنيه من الصفر، من مقولة شهيرة أو حكاية؛ للدلالة على أشياء عديدة، أهمية الإحسان للفقراء والأغنياء معا، ضرورية العمل في الإسلام وعدم التواكل، الغني العامل أفضل من الفقير المتواكل، السعي في حاجات الغير أهم وأفضل من فضول العبادات، هكذا ينمو دين كامل من حكاية واحدة.

جعلني هذا أفكر كثيرا، هل نسخ الدين المتعددة تنتج من وضع القيود، أم من رفعها؛ نسخ الدين التي يحملها البشر والتي مهما توافقت في معظم أجزائها فلن تكون متطابقة أبدا؟ أهذا ما يقصده الصوفية عندما يقولون إن الطرق إلى الله عديدة بعدد البشر؟ فنسختي ونسخة الأستاذ لم تكونا متوافقتيْن في أجزاء تناقشنا في بعضها والآخر لم نكتشفه بعد، وبالمناقشة كنا نعثر على اختلافات أعمق، كأن الدين دعوة للإيمان ليس إلا، ليس الإيمان نفسه.

أظن ـ بل أنا متأكد ـ أن الأستاذ لم يقرأ حكاية عبد الله بن المبارك مع المرأة صاحبة الدجاجة الميتة في كتاب، ربما سمعها في درس ديني، وهو لا يتعمد حضور الدروس الدينية إلا تلك

التي يُجبر على سماعها عندما يحتجزه المطر والجنائز في مسجد ما بعد الصلاة، ربما يكون قد سمعها في وسيلة مواصلات أو إذاعة مسجد وهو يسير في شارع، وعلقت في ذهنه منذ ذلك الحين، وبقيت عالقة حتى حركتها فكرة لا أعرف ما هي، فالأستاذ يعرف حكايات عن الدين لم أتصور قط أنه يعرفها بحكم دراساته واطلاعه النائيين عن الدين منذ زمن طويل؛ حكاية السيدة التي دخلت النار في هرة حبستها، حكاية الصالحين الثلاثة في كهف، وكأن هذه الحكايات تنبت في الهواء ونحصدها مع تنفسنا، ولقد تناقشنا في حكاية عبد الله بن المبارك مرات كثيرة، حتى صار النقاش بمثابة أزمة حقيقية، لا ينتهي، ولا نصل فيه إلى نتيجة مرضية، بل نؤجل الحديث عندما يحتدم الأمر ونشرع في مناقشة موضوع آخر.

* * *

والحكاية قديمة، موغلة في القدم، من القرن الثاني الهجري، عن رجل عابد كثرت حوله الأقاويل والكرامات، كان يحج عاما ويغزو بلاد الكفر عاما، ولما كانت السنة التي يحج فيها، خرج بخمسمائة دينار إلى موقف الإبل بالكوفة ليشتري جملًا، فرأى امرأة على بعض الطريق تنتفُ رِيشَ دجاجة يحسبها ميتة، فتقدم إليها وسألها: لِمَ تفعلين هذا؟! فقالت: يا عبد الله لا تسألني عما لا يعنيك، فوقع في خاطره من كلامها شيء فألح عليها.

فقالت: يا عبد الله قد ألجأتني إلى كشف سري إليك، ثم قالت: يرحمك الله، لي أربع بنات مات أبوهن من قريب، وهذا اليوم الرابع ما أكلنَ شيئًا، وقد حُلت لنا الميتَةُ، فأخذت هذه الدجاجة أصلحها وأحملها إلى بناتي، فقال في نفسه: ويحك يا ابن المبارك، أين أنت من هذه؟

ثم قال لها: ابسطي حجرك فصب الدنانير ـ ثمن الجمل ـ في طرف إزارها وهي مُطرقةٌ لا تلتفت، وأخبرها: عودي إلى بيتك، فاستعيني بهذه الدنانير على إصلاح شأنك، يقول العبد الصالح: ونزع الله من قلبي شهوة الحج في هذا العام، ثم تجهز إلى بلاده، وأقام حتى حج الناس وعادوا، فخرج يلتقي جيرانه وأصحابه، فصار كل من يقابله منهم يقول له: قبل الله حجتك وشكر سعيك، فيُرُدّ عليه: وأنت قبل الله حجتك وسعيك!! إنا قد اجتمعنا بك في مكان كذا وكذا، وأكثر الناس عليه في القول بثبوت وجوده في تخوم مكة، فبات مفكرًا في ذلك فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وهو يقول: يا عبد الله لا تعجب، فإنك قد أغثت ملهوفة من أمتي، فسألت الله أن يخلق على صورتك ملكًا يحج عنك.

* * *

ـ هل تتذكر حكاية الرجل الصالح مع صاحبة الدجاجة الميتة؟

بالطبع أتذكرها، ولكني نظرت إلى وجهه ولم أجب، هل أتى في هذا الجزء من الليل ليناقشني، دون مراعاة لتوقيت حضوره،

الذي لم أدرك على الفور في أي جزء من الليل كان، إلا أن أمي لا تُدخل ضيفا إلى غرفة نومي ـ ليس إلى غرفة الضيافة ـ إلا إذا كان متأخرا، ضاربة عصفورين بحجر واحد، يتحمل الضيف مئونة إيقاظي من نومي الثقيل، وأتحمل أنا مئونة ضيافته، إذا كان لآتٍ في نصف الليل ضيافة، فهل أتى ليسرد حكاية عبد الله بن المبارك واستنتاجًا جديدًا شبيهًا باستنتاجاته السابقة؟ انظر إلى وجهه، ويقع القلق في صدري من مسار الحكاية التي أعلم جيدا ألغامها التي ستنفجر إذا وطأناها بالنقاش، فمع الوقت صار كل واحد فينا يعرف كيف يفكر الآخر، وكيف سيرد، وهذا يجعل معظم مساحات الحوار بيضاء.

ولكن لا، ينشب قلق آخر مخالبه في موضع قلبي فيوجعه، كما أوجعتني نظرة عينه التي تقول إنه لم ينم منذ وقت طويل، تساوى عنده الليل والنهار ثم اختلطا، وإنه لا يعرف كم الساعة، لم ينظر إليها قبل أن يأتي؛ لأن المسألة عنده مسألة حياة أو موت، أو موت أخف من موت واقع فعلا، حماية من انزلاق إلى موت أكبر.

ـ أسألك ـ بصفتك الفقيه هنا ـ ما مصير هذا الملاك بعد أن أدى الحج عن الرجل الصالح؟ هل مات؟ قبضه الله تبارك وتعالى إليه، مكتفيا منه بهذه الحياة القصيرة؟ وفي يوم الحشر، ماذا سيكون موقفه، عندما يعيد الله كل المخلوقات إلى الحياة؟

هل سيعيده أيضًا ويدخله الجنة ثواب هذه الحياة المستعارة التي يشاركه الثواب فيها الرجل الصالح؟

ـ ما الإشكالية؟ الملائكة مأمورة أصلا، مسيرة، ليست كالبشر؛ لذا لا مفر من أن يكون مصيرها الجنة، ومعظمها يعيش في الجنة ولا يغادرها، عدا المكلفين منها بالأعمال في نسخ أعمال البشر وقبضهم وبث الأرواح في مواليدهم وحمايتهم من الشياطين وحمل الصلوات إلى النبي وهكذا.

ـ وباقي الملائكة، ماذا يفعلون؟

ـ يعبدون الله بأوضاع ثابتة أشبه بحركات الصلاة التي نؤديها في ركعة واحدة، بعضها ساجد وبعضها قائم وبعضها راكع.

ـ إذن (جادلني قائلا): أنت تقول إن الملاك الذي قام بذلك لم يُخلق لذلك خصيصا، بل هو من ملائكة المهمات، وربما من ملائكة العبادة الأزلية.

ـ لا أعرف، هذا في علم الغيب.

ـ لنفترض، أيًّا كان، النتيجة واحدة، لقد صوره الله على صورة الرجل الصالح، ونزل إلى الأرض وأنهى مهمته وعاد للجنة خالعا هذا التنكر الإلهي؛ القناع النوراني ليتحول إلى نفثة من نور في فضاء الجنة عائدا بوقار إلى مكانه في الصف الملائكي (الساجد أو الراكع أو القائم)؛ ليستأنف عبادته الأزلية لله، أو عائدا إلى مهمته.

(قال هذا وصمت ناظرا في عينيَّ، وقد تجاوزت رؤيته وجهي إلى رؤية الصورة التي أفترضها)، هل تعلم (ممعنا في التفكير) هذا أفضل قليلا من أن يخلقه الله تبارك وتعالى ثم يقبضه أو يصيره إلى عدم مثلا؟ ولكن هناك ثغرة خطيرة في افتراضك، وهي: ما الكرامة في الأمر؟ هذا أشبه بأن يرسل الله رجلا شبيها بك ليعيش في بيتك مثلا، ويحسن إلى أولادك، لماذا لم يعطه الله أجر الحج بدون استعراض، وبدون أن يدفع رفاق القافلة إلى إساءة الظن به وهم يؤدون شعيرة يحتاجون فيها إلى صفاء النفس ليتساءلوا بينهم وبين أنفسهم: لماذا كذب علينا الرجل الصالح وقال لنا إنه لن يصحبنا هذا العام، وها هو الآن يحج معنا؟

عندما يتوغل الأستاذ بالمنطق خلف تفاصيل الحكاية بهذه الطريقة، فهو يمهد لافتراض ذهني معدٍّ سابقا لن يثنيه عن قوله أي زيادة في المعرفة، بل سيقويه، مثل قطار منطلق إلى وجهته النهائية، كل ما أفعله هو أنني أوقفه عند المحطات، تنزل مجموعة من (أنا متأكد، لا يصح إلا هذا، غير معقول) لتركب مجموعة أخرى، فضلا عن أن أخبره بمعلومة تحتاج إلى إعداد ذهني مثل أن الحكاية المروية بأكملها ضعيفة، مؤديا إلى انقلاب القطار بأكمله، ومقتل عديد من المسلَّمات التي عاش عليها، في النهاية يجب أن أستسلم وأسأله:

ـ ما الذي تريد أن تقوله بصراحة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

فيتنهد عندئذ، مطمئنا لاستسلامي، متحمسا قليلا، تعب ليطمئنني أنني ـ أيضًا ـ لم أكن خصما سهلا، قائلا ببطء لأستوعب فكرته:

ـ ما أريد أن أقوله هو أن روح هذا العبد الصالح كانت أخف بكثير من بدنه، وأن موضوع الملاك الذي استنسخه الله على صورته ليس إلا مجازا، مجرد مجاز إلهي لتقريب الصورة.

ـ إذن أنت تفترض أن الله لم يخلق ملاكا.

ـ بالضبط، والحقيقة أن الرجل الصالح من كثرة تفكيره في الحج وارتباطه به انطلقت روحه، بمعونة من الله، انفك أسرها وانطلقت، مؤدية شعيرة الحج، روحًا مزدوجة، وهو جالس في دكانه لم يكن يفكر في المال والتجارة مثل بقية الناس، بل يفكر في الوقت ودلالته؛ الآن يطوفون بين الصفا والمروة، الآن يصعدون عرفات، يرمون الجمرات، لم تتملكه غشية ولم يصرع لتتمكن روحه من أداء الشعائر بإتقان، بل أدى مهمتي التواجد بلا نقصان، أنا مثلا، خذني كمثال، وأنا شخص لم أتقن صنع نفسي، وأجدني في كثير من المواقف غائبًا عن الحضور أو مفرطًا في الحضور، نيئًا أو محترق الأطراف كرغيف خبز في يد فران مبتدئ، ولكن في الشيء الذي أتقن فعله؛ التدريس، وأنا أشرح الدرس للطلبة أجد روحي في المطبخ مع زوجتي، أو جالسا معها في الصالة، أجدني أفكر في أينشتين ونيوتن وجاليليو سارحا في حياتهم،

أحيانا أبصر، في أي وقت من اليوم توصل أحدهم إلى إثبات قانون من قوانينه؟ وأعود إلى وعيي، فأجدني في قاعة الدرس مستمرًّا في الشرح للطلبة، بل المفاجأة أنهم يخبرونني أن هذه الحصص بالذات تكون فائقة الجودة.

سألته حينها، متمما لفرضيته، متوهما أنني أساعده على تجاوز الأزمة، موجها طعنة دون أن أدري:

ـ وفي غير هذه الحالة، عندما لا تكون روح الشخص منا أخف من بدنه، ستكون أثقل، أليس كذلك؟

تحمس، وأجابني:

ـ لنفترض أن الروح والجسد كفتا ميزان، معظم الوقت ومع أشخاص مثلي ومثلك، يعيشون حالة من خفة الروح التي لا تصل بهم إلى الانطلاق، وثقل الجسد الذي لا يؤدي إلى ترسب الروح فيهم.

ثم وجم، نظر إليَّ نظرة معكرة بالحيرة، ورد السؤال إليَّ قائلا:

ـ ولكن، هل يمكن أن تصل الروح إلى حد من الثقل يصبح فيه الجسد خفيفًا بالمقارنة، وما الذي يحدث عندئذ؟

(السؤال جزء من كل)، ليس سؤالًا يراد منه الإجابة، ولا إجابة لسؤال أكثر تعقيدا، ليس كاشفا، ولا مستترًا، بل خطوة في الطريق إلى معرفة حالة عامة كانت تتكشف لي رويدا رويدا، عن الأستاذ،

تدفعني إلى استنتاج واحد مؤكد، أن حكاية عبد الله بن المبارك لم تكن مجرد حكاية بالنسبة إليه، حتى لو كانت كذلك من قبل، فهي لم تعد.

ـ لديَّ إجابة.

نطق أخيرا بعد صمت طويل، فشرعت أنظر إلى وجهه وأسترجع حوارنا، أحاول أن أخمن أي شيء يمكن أن يأتي به ليلا، ولا يصبر حتى الصباح، في ليلة لن تنتهي ببساطة كما يبدو، وفكرة أبعد بكثير من مجرد افتراض جديد.

* * *

يمتلك الأستاذ وجها مريحا هادئا، على خديه شيب خفيف كأنه دقيق متناثر، وله فم صغير تشعر معه أنه ينتمي إلى عرق خاص، يعلو صوته قليلا فوق الطبقة العادية للحديث، ويعلو أكثر إذا ظللت صامتا وهو يتحدث، كأنه يدفعك عبر الإزعاج إلى المشاركة معه، فهو يكره الذين ينتظرون اكتمال الفكرة في أذهانهم ليشرعوا في الحديث؛ لأن معظم ما يتوصل إليه من استنتاجات يتوصل إليها وهو يتحدث معك.

أحدُ جفني الأستاذ مرخيٌّ قليلا، ارتخاء لن تنتبه إليه عادة في أول لقاء بينكما، ومعظم الناس إذا أمعنت النظر فستكتشف أن لديهم اختلافات بين شقي الجسد؛ كتف صلبة، ذراع قصيرة،

لكن ارتخاء جفن عينه ليس من قبيل هذه التفاوتات، ليس أصيلا في خلقته كما يقال، ولا أعلم كيف يمكن اكتساب صفة جسدية كهذه، ربما عبر التطبع بها.

والأستاذ وظيفته الشرح، التحدث والإنصات والتصحيح في أثناء ذلك، وبخلاف وداعته في أثناء الحديث، كان الأستاذ مهيبا، إذا أقبل عليك بوجهه يتولد لديك انطباع أنه يراك على مستويين؛ العين اليمنى منتبهة تلاحظ حركتك العامة، أما اليسرى ـ المرخية ـ فتراقب حركاتك الأدق، البطيئة؛ لتكوين نمط عام منها، كما لو أن اليمنى ترى الأحداث، واليسرى تخمن الحكايات، وعندما يستنتج: أنت جائع، هل تؤلمك ساقك من المشي؟ يتسرب لك انطباع أن ملاحظته نابعة من عينه اليسرى، الخبيثة الماكرة، وكأن لديه في روحه جانبًا أكثر نضوجًا من جانب، بل جانبًا نضج لحد الاحتراق والآخر تُرك نيئًا، لا يدهشك ذلك الجانب في روحه التي أحرقتها كثرة التعرض والملاحاة والتجربة، بقدر اندهاشك من جانبه البريء كيف استبقاه بعيدا.

ولا أدري بأي جانب منهما بدأ يحكي مقتربا بوجهه أكثر من المعتاد:

ـ كنت في قاعة المحاضرات المشمسة أشرح مسألة في التوصيل الحراري.

تخيلتِ الأمر، كما في أي قاعة محاضرات في الدنيا، كل شيء يسير في مساره الطبيعي، ظل الأشياء الناتج من الضوء في اتجاهه الطبيعي، والهواء إذ يهب من جهة يبعثر الأشياء في الجهة الأخرى؛ صفحات الكتب وشعر الطالبات، والتراب الذي لا تبلغه كيعان الطلبة فلا تمسحه راكد على المناضد، إنها لحظة سرمدية من اللحظات المكررة التي لا يتغير فيها شيء والتي قام فيها ـ وسيقوم بها ألف أستاذ قبله وبعده ـ بشرح مسألة، غير أن اللحظة احتوت على لمساته الخاصة، مثل أن المسألة الموجودة في كتابه الذي يوزع على الطلبة ليس لها حل، فهو لا يضع لمسائله حلولًا، يحب أن يهتدي هو والطلبة إلى الحل خلال المحاضرة، أن يعود طالبًا معهم، طالبًا متفوقًا، وكمساعدة للطالب الكسول غير المبدع يضع المعادلات التي تحل المسائل الهامة أسفلها بترتيب استخدامها.

كان يحل المسألة إذن، ولكن إحساسًا بالريب والغرابة بدأ يتسلل إليه؛ فالحل طال أكثر من اللازم، والأستاذ وقع في متاهات المعرفة الأولى، والتي قد يقع فيها طالب ذكي لا يعرف القوانين أو طالب بليد يحفظ القوانين، الخطأ الأزلي الذي يقع فيه ـ عن عمد ـ العباقرة ـ وعن صدفة ـ الأغبياء، ويطرق فيه سككا لم يسبق له أن طرقها من قبل، ولم يسبق لأحد أن طرقها، فتوقف، عاد للوراء قليلا وأخذ يتأمل الحل منذ البداية ويراجعه بسرعة ذهنية هائلة، يوجد شيء غير طبيعي، الشيء غير الطبيعي الآخر الذي بدأ

يحدث هو توقف اللغط والهمهمة اللذيْن يلازمان أي مدرج في أثناء الشرح، كغياب عنصر نادر من الهواء كالهيدروجين مثلا، شيء لا يُلحظ في أثناء التنفس إلا بالريبة، ليس بالاختناق، توقف مريب سبق له خلال عمره الجامعي أن شعر به عدة مرات، وهو طالب مجتهد، وهو مدرس محاضر، ولا معنى له إلا شيء واحد، أن أمرًا خارقًا يحدث، طالبًا منهمك في قبلة طويلة مع طالبة، طالبًا قفز على طاولة الكتابة وأخذ يرقص، غرابًا دخل من النافذة وأخذ يحوم، طالبة أو طالبًا جنت\جن فخلعت ملابسها \خلع ملابسه، التفت، يراهن أنه رأى عشرة هواتف على الأقل مرفوعة في الهواء تصوره، فيديو، أو صورة ثابتة، ماذا حدث؟ هل بال على نفسه؟ هل تلقى طعنة خفية في ظهره وسال الدم دون أن يشعر؟ هل نبت له ذيل؟ عندئذ شعر أنه ينبغي أن يلجأ للتكنيك الذي يلجأ له أحيانا لاختبار الطلبة المتفوقين، بعد أن يغلط في حل مسألة عمدا ويستدعي أحد الطلبة المتفوقين إلى السبورة، ويسأله متذاكيا: ما الخطأ الذي وقعت فيه أنا؟ هيَّا، أرنا شطارتك.. ولكنه لم يفعل، الأمر أفدح بكثير من مجرد خطأ عادي، ولديه إحساس أن الطالب الذكي لو خرج فسينكل به، فلبث واقفا حائرا.

قال لي إنه لم يشعر بهذه الحالة من الضعف قط في حياته، حتى عندما أصيب في حادث أرقده على ظهره واضطره للتبول في زجاجة، وفي التهاب العصب السابع عندما فقدت عضلات وجهه صلابتها وكان يقيم فمه مثل الجلدة المتهالكة ليدخل الماء

إلى بلعومه، وعندما ضُبط وهو مراهق يمارس العادة السرية، ضعيف بلا مبررات، تحول فجائي من قوة مسيطرة لضعف شديد، نظر إلى السبورة المليئة بخطه المنمق، أختلس نظرة إلى كتابه المفتوح على نضد الدرس، إلى المعادلات التي يرسم بها طريق الحل، قارن في نظرات سريعة، لاحظ وجود معادلة لا وجود لها في الحل الأصلي، ولم يرها من قبل، ولكنها بدت له مألوفة، (كيف خرج هذا الوصف من الأستاذ ـ مألوفة ولم يرها من قبل؟)؛ عندئذ ارتكب خطأه الثاني، اقترب من السبورة حاملا ممحاة السبورة وهي عبارة عن قطعة من القماش المخملي المبقعة بالألوان، رفع ذراعه جاعلًا كف يده بمستوى المعادلة اللقيطة التي كتبها، هامًّا بمسحها، ولكنه توقف، تجمد، وفكر، ما هذه المعادلة؟ كيف تواجدت في هذا المكان؟ أي تسلسل أتى بها؟ لم يعد يريد أن يمسحها، على الأقل حتى يعرف كيف جاءت، كيف انبثقت من ذهنه، دار صراع عنيف بذهنه ما بين محو الخطأ ودراسته، وما بينهما فارق كبير، كالفارق بين قتل جرذ ظهر فجأة في مخزن للغلال وما بين شن إبادة كاملة والبحث عن مكمنه ومن أين دخل وهل له رفاق، أم لا؟ هل سيترك هذه الأفكار الجرذانية تتغذى على ذهنه، أفكاره الباطنة؟ من أي جزء في عقله نبعت هذه المعادلة؟ كثيرا ما مارس هذه الرياضة الذهنية مع طلابه، في أثناء تصحيح الاختبارات، والنقاشات، من أين ينبع الخطأ؟ معتقدا لوقت طويل أن الذهن الصحيح يجب أن يفرز معادلات سليمة

وأن الذهن السقيم لا يفعل ذلك أبدا، ولكن هذه النظرية الأخلاقية للعلم لم تثبت صحتها، بل وجد أن المنطق كثيرا ما يأتي بالأخطاء، والحيود ـ أيًّا كان نوعه ـ ربما يكون استقامة، تجمدًا، محاولًا أن يحدد، كيف سار به حل المسألة ليصل إلى هذه المعادلة التي كانت منذ دقائق منطقية للغاية، محاولا الالتفاف على نفسه، مثل ثعلب يحاول أن يعض ذيله، ناسيا أن هناك درجة من تتبع الأفكار السيئة داخل النفس، مسافة معينة يجب أن لا تتجاوزها، كأنك تتتبع ولدًا شقيًّا ـ لمجرد أنه قذفك بالطوب ـ إلى عقر داره المليئة بالأشقياء؛ لتنشد العدالة أو التفسير المنطقي.

سمع نداء، صيحة أقرب إلى نداء، صادرة من جهة المدرج حيث الطلبة، ولكنها لم تكن من أحدهم، بل صوتًا قديمًا، سمعته أذناه قبل أن تسمعا صوت أبيه وأمه، أقرب إلى وسوسة ولكنها جهرية وقحة، صوتًا أنكره بشدة وأنكر صدوره بشكل جعل حواسه تختلط اختلاطا عنيفا، وشم رائحة وكأن شيئا متعفنا ألقيَ في القاعة، كأن دَنًّا فخاريًّا قديمًا ولد معه، ووضع أول ما وضع فيه مشيمة ميلاده، وخُتِمَ، كما تختم قدور العفاريت بالختم السليماني، أقسم أن لا تخرج، ووجدت كل مخاوفه وهواجسه وأفكاره السيئة المنحرفة الباطلة الكافرة طريقها إلى الدخول فيها دون أن تفض الختم، بالارتشاح، بالتماهي، بالتضاؤل، بأي طريقة، واختلطت وتعفنت وماتت جزئيًّا من الظلام والعزلة والاختباء القسري، في هذه اللحظة فقط، لحظة أن أخطأ وكتب

معادلته اللقيطة حصلت هزة عنيفة، تحرك تكتوني في الألواح القارية لداخله، وانكسر الدن وانكشف وسال بداخله، واختلط بدمه الذي يضخه القلب إلى عينه وأنفه وفمه.

عندما التفت حائرا إلى طلبته تأكدت شكوكه، رآهم يخرجون في فزع، بعضهم يخرج فورا والأشجع منهم يتوقف عند أسفل منصة المحاضر، رافعين هواتفهم بشكل وقح صريح وقد جعلوه هو بؤرة الحدث، ولاحظ على وجوه الطلبة البلداء الذين يكرهون مادته ومحاضراته شماتة لا حدود لها، مثل تلك الشماتة التي تعلو وجوه العوام عند سقوط دكتاتور، أو انكشاف ذنب ارتكبه رجل دين، أو سقوط رجل متأنق وسط شارع من الحرفيين، تدافع الطلبة باسمين ضاحكين مقهقهين صارخين، والطالبات أخذن طريقًا جانبيًّا وهن يغضضن الطرف عنه، في خيبة أمل وقرف.

مثل المتهم بارتكاب جريمة، فضيحة أخلاقية، صعد إلى المنصة فراش المدرج وفراش المدرج المجاور، وزميله محاضر الدرس التالي، سحبوا الخرقة القماشية الملونة من يده، تركوا لزميله لملمة أدوات الجريمة (كتبه وأجندته وأقلامه)، وحملوه حملا من تحت إبطيه، انتزعوه من قالب الجبس الذي صبه فيه القلق والتوجس، أعطوه مبررا وحمدهم عليه، أكثر مما حمد أبويْه عندما علماه المشي وشجعاه على الاستقلال بالحركة الأولى، مؤطرا بين زوج الفراشين برائحة عرقهما وحرصهما الأكاديمي

(الذي اكتسباه من كثرة الاحتكاك بالأساتذة)، وأسفهما الناتج عمَّا سمعاه من الطلبة، مما انتشر وذاع، والقلق الناتج عن اكتشاف هشاشة وضعهما بعد ثقة طويلة، ماذا لو جن كل الأساتذة وألغيت المحاضرات وأقفلت قاعات التدريس؟ لفقدنا مورد رزقنا الوحيد، كثير من الامتنان للأستاذ الذي رفع الخرقة القماشية لأعلى واتجه إلى السبورة، وفي أثناء اتباع الأستاذ لتوجيههما للخروج عبر الطلبة، لاحظ نظرة الأسف وهزة الرأس قبل أن يبدأ الأستاذ بمسح خطيئته من فوق السبورة.

* * *

أعرف الجامعة التي يعمل بها الأستاذ، واحدة من تلك الأماكن المسطحة التي لا يختبئ فيها التاريخ، تتضخم فيها باستمرار أحداث تبدو لك عادية، بينما تمر بها أفعال يعتبرها الجميع في الأماكن الأخرى من الموبقات؛ فالمرء لا يحتاج إلى أن يؤمن ليخلع حذاءه قبل الدخول إلى الأزهر الشريف، بل يفرض المكان سطوته وسلطته، حتى على الأشخاص القائمين على الأمر فيه، والذين يجدون متعة في تأطير وتعليب قيم ومصطلحات بعيدة عن همومهم اليومية، بل يعتبرونها طريقة للانتقام من الواقع، أن يروا أثر الفراشة في كل شيء داخل الفقاعة التي أحاطوا بها المكان، ولو كان في سلوك أستاذ يتمخط في منديل قماشي.

ما الذي دار بذهنهم حتى قرروا إعطاء الأستاذ هدنة من التدريس بنصف المرتب؟ إسقاط اسمه من جدول المحاضرات والإبقاء عليه كالشبح يحوم في دهاليز الجامعة وأروقتها الظليلة، في حفل استثنائه من التدريس المعتاد، في اجتماع رئيس الجامعة وعميد الكلية وبوصفه مدرسًا قديمًا للمادة التي يدرسها، مدشنين الاجتماع بعرض الفيديوهات التي صورها الطلبة وحملوها على مواقع المشاهدة مصحوبة بعناوين جذابة لفيديو ممل عن أستاذ يخطئ في حل مسألة توصيل حراري عادية تماما، أقل من عادية، ومنتهين بعد جلسة فيها كثير من الود والتربيت الأكاديمي على الكتف.

الثابت أن الأمر مرَّ بلا نقاش ولا اعتراض، لا وقفة عدائية ولا سلمية حتى، لا من قبل الطلبة المحبين ولا من أعضاء هيئة التدريس، لم يقف اثنان في ممر وتناقشا بصوت عالٍ يعززانه بثالث، ولم يسجل أحد اعتراضه حتى بشكل مستتر؛ لا لطخة على جدار، ولا ثلمة بمسمار على مقعد أو نضد خشبي ، لكان الحادث أكثر عجيجا لو أحب طالب طالبة، لو تجرع طالب السم لأنه لم ينجح في مادته، لو كتب الأستاذ على صفحة الفيسبوك لفظا غير لائق أو رأيًا سياسيًّا يضع الإدارة في حرج التفسير، لقامت قائمتهم وتم استدعاؤه ووضعه تحت استجواب قوي، ولكنهم تعاملوا مع الأمر عندما فاحت الرائحة دون اتهام، وبكثير من الخزي الذي يتعامل به بقال مع بضاعة اكتشف الزبون فجأة

انتهاء صلاحيتها، الأستاذ يتوه وهو يشرح، ينسى المعادلات، يكتب معادلات غريبة وألفاظًا قبيحة.

بالذات أعضاء هيئة التدريس كانوا ـ إذا ما لمحوا اللوم في عينه ـ يهمسون بيقين وبعبارة واحدة تتغير صيغتها: نحن في جامعة خاصة، يجب أن نفهم ذلك جيدا ونتقبله، بصيغة الجمع، ولكنه لم يفهم، من الشرير ومن القبيح، من الفريسة ومن المفترس، أين تقع بداية العالم الذي وصل الآن إلى نهايته بسرعة الصاروخ، هل كان الأمر ليختلف لو كانوا في جامعة (ماذا يسمونها) حكومية، عامة؟ هل يمررون هناك هلاوس الأساتذة، وسقطاتهم، كجزء من حزمة سوء يجب أن يُرْضوا بها على مضض من لا يملك ثمن الحزمة الأفضل، الخالية من العيوب والمساوئ؟

وحده كان ـ الأستاذ ـ يغلي، في الأيام الأولى إذا مر الحادث بباله، إذا اقتحم ذهنه، وطيلة شهور كان عليه أن يخفر ذهنه باستمرار؛ ليدفع التفكير ككل فيما حدث، ولكن لابد أن يشرد ذهنه، يترك لجام التفكير قليلا ويرتاح ولا ينتبه أنه رويدا رويدا ينزلق، فجأة يجد أنه منغمس بكليته في التفكير بما حدث.

في مرات التذكر الأولى كانت تتملكه رعشات، ويضغط على قبضته، يكز على أسنانه، يهز ساقيه، يلصق وجهه بشيء؛ لوح زجاج ـ غطاء فراشه ـ كتاب في يده ـ كفه، ويتنفس بقوة، وعندما تمر هذه النوبة، كزلزال، عندما ينجح في تغييب المشهد

عن عينه الداخلية، يصبح وجهه كمن مر بنوبة تقيؤ عنيفة، وتطفر دمعة شديدة السخونة نتيجة مشرفة لكل هذا الطحن الذي لم يشعر به أحد.

ولكنه في تلك الليلة وهو يحكي لم تدمع عيناه، ولم تظهر في كلماته سيماء التنكيل بالذات، وبدا أنه أخيرا أمسك بالحادثة من الزاوية التي لا يمكن لها أن تضره، بعد أن كافح طويلا لينسى، وكافح أطول ليستمرئ عذاب التفكير فيها، بل إنه وجد لحكايته الأثيرة ـ حكاية عبد الله بن المبارك ـ صلة بهذا كله.

ـ إذا كان للأرواح الأخف من أبدانها أن تسافر وتحج وتلبي، فهل يمكن للأرواح الثقيلة أن تسافر أيضًا، أم أن الأبدان هي ما تطفو بعد أن تترسب الروح الثقيلة لأسفل تيار الحياة، فتصبح الأجساد مثل غلاف فارغ، فتسافر وتتجول بينما تقيم الروح في مكان ثابت؟

أنظر إلى عيني الأستاذ فأرى رغبته في الفرار من أسئلتي التي لم أطرحها بعد، وندمًا شديدًا أنه استسلم لضعفه وجاءني في هذه الساعة من الليل، وتردد في السير على الخط الذي سيؤطره الحوار بيننا إذا استمر، يجب أن أطرح أسئلتي بحذر وإلا انصرف الأستاذ كما جاء، بلا لباقة، ولا مقدمات.

* * *

سألني فجأة:

ـ ماذا تعرف عني؟

فوجئت بالسؤال، وخشيت منه، فسؤال كهذا صيغة مختزلة، قل لي: ماذا تعرف عني؟ فالجميع يقولون عني أشياء لا أفهمها؛ أنت طوق نجاتي الآن، أنت العقل الأخير الذي ألتجئ إليه لأعرف إن كانوا على حق أم لا، أم أنها صيغة أخرى ليخبرني بأنني لا أعرف عنه شيئًا من أساسه، عندما ينظر الكبار إلى الصغار قائلين لهم: هل تعرفني؟ أنت جاهل، أنت لا تعرف أحدًا ولا تعرف شيئًا، والدليل أنك لا تعرفني، يجب أن تسكت، وأن تستمع لي وأنا أعرف نفسي بنفسي.

تجاهلت الفخ المفترض وأخبرته بالمعلومات الأساسية، دون أن أطنب في مدحه ولا أتطرق لما قد لا يروقه، أستاذ جامعة محترم متدين يصلي الفروض بانتظام ويحترم الناس ويصوم حتى في الأيام التي يسافر فيها رغم أن الرخصة لديه بالفطر، و..

في الواقع كنت أخبره عن الجزء الأخير، جزء الحياة الذي كنت شاهدا عليه، لقد بدأ يصلي منذ فترة، ربما لم يكن يصلي قبلها، أو يصلي في بيته، فكثير من أساتذة الجامعة والمثقفين لديهم أفكار خاصة (عجيبة) حول العبادات الجماعية التي تتطلب اختلاطًا غير مميز مع العوام، قال لي هو نفسه ذات مرة إن أجر الصلاة في البيت أكبر بكثير من أجرها بين الناس في المسجد؛

لأن المصلي في البيت لا شبهة نفاق ولا مراءاة في عمله، وعندما أخبرته بحديث النبي أن أجر صلاة الجماعة تسبق صلاة المنفرد في بيته بسبع وعشرين درجة، أنكر بشدة أن يكون الحديث يشمل كل الناس، وأن نسخة الدين العامة الموجودة في الكتب ويروج لها الفقهاء على المنابر موجودة فقط لإصلاح من لا يستطيع استنباط نسخة لنفسه تصلح له.

ولكن إذا كان مقتنعا بأن المصلي في بيته أكبر أجرا، فلماذا بدأ بالصلاة معنا؟ لعلة معينة طرأت عليه، أم أن النسخة الصالحة له لم تعد صالحة الآن؟ كنت أود أن أسأله هذا السؤال، ولكني كنت مراعيا لحساسيته؛ فالأستاذ من نوع البشر الذين لا تصلح معهم مناورات تضع أفكارهم في وضع مقارنة مع أعمالهم، وقد تضطرهم لاتخاذ إجراءات عبثية مفاجئة، كأن يترك الصلاة في المسجد تصديقا على كلامه، ولم أكن مستعدًّا لتجربة هذا.

نشأت بيننا قاعدة، نفهمها ونتعامل بها دون أن نفصح عنها إفصاحا بينا، أن النسختين اللتين ندافع عنهما في الدين نسختان عامتان، لا يخصاننا بشكل تام ودائم، نحن ندافع عن نسختين يعتقد جمعان غفيران من البشر أن هذا إسلامهما، أما نسختانا المخبأتان، فلربما كان بهما توافق أكثر مما بين هاتين النسختين المعلنتين.

لماذا لم أكن أكف ـ حينها ـ عن الجدال بما هو أوثق بالنسبة إليَّ، مع يقيني أن ترك الجدال مع الأستاذ أفضل؛ ربما لأن الجهل ـ كجهل

الأستاذ وجهلي ـ تنتج منه نسخ صحيحة بشكل نسبي، متقاربة ومتشابهة؟ العيب في القاعدة التي سلكها كل واحد منا للوصول إلى نسخته؛ فالسير على قواعد مثل النفع العام والذوق ومراعاة الآخر تشبه في النتيجة السير على عقائد كالتكليف والإذعان وحرمة الدم والمال والعرض.

ماذا أعرف عن الأستاذ؟ هناك شيء أتى به للمسجد، شيء لا أعرفه، واللاجئون إلى المسجد لأسبابهم الخاصة أكثر من اللاجئين لأداء الفرض. لا ريب أنني ما من مرة قابلت الأستاذ إلا وشعرت أنه يدور ويدور حول أمر ما يود أن يقوله، أن كل هذه الحرائق المفتعلة والنقاشات الوهمية التي نشعلها هي مجرد نار للسمر حول قصة الليلة الأساسية، القصة المخيفة التي ستجعلنا نخلد إلى النوم في نهايتها وقد اكتفينا، ولكن على طرف لسانه دائما شيء يقوله ليخبئ به الأمر الأصلي، متى ستفرغ جعبته؟ لا أعرف، ما الإشارة إلى قرب حدوث ذلك؟ لا أدري، أهو سؤال كسؤاله الآن: (ماذا تعرف عني؟)، وعبارة غامضة قاطع بها قصيدة التعريف النمطي التي شرعت في تلاوتها:

ـ ها أنت ذا تفض السيلوفانة عن بكرة الخيط.

ولم أفهم تماما لماذا قال هذه العبارة بالذات في سياق الحديث، فسألته:

ـ ماذا تقصد؟

* * *

ضحك عندئذ، واستراح في المقعد الذي سحبه إلى جانب فراشي في بداية حديثنا، عندما خرجت من تحت لحافي، ونهضت وغسلت وجهي وأعددت الشاي وعدت للجلوس قبالته، تاركا للصمت مهلة عطوفة للاستماع إلينا.

ـ أنا بكرة الخيط. أجابني في حماس.

قال إنه ذات يوم اتصل به رجل، وعَرَّفه على نفسه؛ فهو قريب لزميل دراسة قديم، لم يسمع به منذ سنوات ولم يبدِ حريصا على وصل ما انقطع من معرفة.

ـ كيف حاله الآن؟ سأل الأستاذ الرجل المتصل

ـ يسلم عليك، إنه ابن خالتي، وكنا نتكلم عنك منذ قليل، وقال عنك كلاما مبشرا.

ـ مبشرًا بخصوص أي شيء؟

ـ ستعرف عندما نتقابل؛ فأنا أتصل بك لأني أريد تشريفك بحضور حفل زفاف ابني؛ فأنت أستاذ في الجامعة وما شابه، أليس كذلك؟... أستاذ في الهندسة و(المكن).

قال لي الأستاذ إنه لم يطمئن للهجة الرجل لأنها بدت مشجعة أكثر من اللازم، وهو مدرك أن أساتذة الجامعات ليسوا هم الصنف الذي يفتخر به الناس في المناسبات العامة، ربما عضو مجلس الشعب أو لاعب كرة أو ممثل أو مغنٍّ أو حتى رجل فاحش الغنى،

ولكنه قال في نفسه: وماذا سيحدث لو ذهبت؟ لن يضع لي سمًّا في الطعام، أو يطلب مني ثمن الأكل عند انصرافي، وتحسبا أخذ معه مالًا كافيًا فلربما كان الرجل صاحب (نقوط) عُرس قديم، كانت على أبيه أو عليه من حفل زفافه رغم ثقته أنه سددها بالكامل، ولو أن الأمر أمر (نقوط) لكان سيبدأ بتعريف نفسه، أنا صديق أبيك القديم، أو ابن صديق أبيك، وليس بالطريقة التي بدأ بها.

ذهب إلى الزفاف، وهناك اكتشف أنه حمَّل الموقف أكثر مما يحتمل، وأن مخاوفه لم يكن لها داعٍ، تعرف عليه الرجل المتصل واصطحبه بعد الطعام إلى غرفة واسعة بها ماكينة متوسطة الحجم وطاولات كثيرة عليها بكرات خيوط ملونة وبيضاء وسوداء، كبيرة وصغيرة، وأكواب شاي بها ثمالات سوداء وقراطيس ورقية، ورشة عمل طاحنة، شرح له الرجل سر المسألة التي جعلته يتصل به، متخذا من زواج ابنه ذريعة، فهو يريد استشارة هندسية مجانية، بادئا بالقول:

ـ هذه الماكينة تلف الخيوط، نضع لها بكرة الخيط الكبيرة هنا بالأعلى فتوزعها إلى بكرات صغيرة هناك.

كل شيء تمام والمشروع مربح، إلا أن هناك مشكلة بدأت تظهر، أحد الرءوس الموزعة للخيوط تصنع عقدًا بسيطة من وقت لآخر، والبكر الصغير الناتج يكون معيوبا، يتسبب في قطع الخيط عند تشغيله على ماكينات الخياطة.

الرجل لا يريد إصلاح العطل؛ فهذا سيستلزم وقتا ومالا، ولكنه يريد اكتشاف الرأس المعيوب ليعزل البكرات الناتجة عنها لزبائن ماكينات الخياطة اليدوية الذين لن يقلقهم بعض العقد البسيطة من آن لآخر، وبهذه الطريقة لا يفقد زبائنه الكبار.

ـ مهمتك يا دكتور أن تعثر لنا على الرأس المعيوب، هل تستطيع؟

هكذا اختتم الرجل المضياف كلامه، فكر الأستاذ قليلا قبل أن يرد:

ـ مسألة سهلة، يمكنك أن تسحب عينة من بكرات كل رأس، وتقوم بفضها والكشف عليها.

ـ وهل تظن أن هذه الفكرة لم تدر برأسي؟ لقد حاولت واكتشفنا أن الرأس المعيوب ليس معيوبًا على الدوام، إنه يقوم بذلك من وقت لآخر، ولكن عندما تفعل يخرج منه ما لا يقل عن مائة بكرة على الأقل في زمن قصير، تلويث طلبية كاملة، وكأن هذه الماكينة تلاعبنا.

بغض النظر عن عدم علمية الفرضية، أي ماكينة تتبع منهج الحديد الصارم، تسير بخطوات ثابتة في دورة ثابتة ولا يمكنها أن تخرج عن مسارها لعدد مرات معين ثم تعود لصوابها، قال الأستاذ للرجل الحائر إن عليه أن يوقف الماكينة من وقت لآخر، ويكشف على عينات عشوائية، سيستغرق الأمر وقتا، ولكنه

الأسلوب الوحيد إذا كان يريد أن يتفادى فك الماكينة بالكامل والكشف على العيب الأساسي، ربما كان انحرافًا في كامة أو تباطؤًا في ترس نتيجة تآكله واتساع الخطوات بين أسنانه أو مسمارًا تحلل من مكانه فيمسك تارة ويترك تارة، قال الأستاذ متفلسفا، متلقيا نظرات الرجل المزدرية، المتحدية، المليئة بالندم على وجبة الغداء التي ضاعت بلا جدوى، اندفع الأستاذ ليثبت صحة وجهة نظره، بدأ يفض السلوفان من فوق بكر الخيوط الصغير، يفرد الخيط، أمتار من الخيوط تكونت أسفل قدمه وهو يظن أن وجوده هنا له معنى، وأنه في لحظة قدرية سيتمكن من العثور على الرأس المعيوب ويسحق نظرات الرجل المشفقة في عينه، ولكنه لم يستطع أن يعثر على بكرة واحدة معيوبة.

عند خروجهما سألوا الرجل: ماذا فعل الدكتور؟ أجابهم ساخرا: فض السيلوفانات.

في صراع بين الدال والمدلول لن تلبث الحكاية طويلا، أحملها أنا وربما يحملها معي الرجل صاحب ماكينة الخيوط، وعندما يطوينا الموت أو النسيان سيسقط متن الحكاية ويظل مدلولها، دالًا على الخيبة العلمية ربما، على اقتراح ما هو واضح وضوح الشمس، وربما جاء متفلسف ووسع المدلول قائلا إن اللفظ يدل على الندم بعد فوات الأوان، ولكن لا أحد إطلاقا، لا أحد سيفهم أن الدال الذي سقط هو مدلول في حد ذاته،

اختصار حكاية طويلة غُزلت على مدى طويل، على عجل تارة وعلى مهل تارات، وأن بكرة الخيط التي حوت خيوط الحكاية مليئة بالعقد والدوائر والمتاهات، زارتني وجلست أمامي في ذلك اليوم وحكت لي عشرات المجازات، متعمدة إضاعتي عن الحكاية الأصلية، ملقية اللوم كاملا على الرأس الذي لفلف خيوطه، وعقدته، على اليد التي صنعت الماكينة، على مشغل الماكينة، والتاجر المتقاعس الكسول، على الكامة والترس حتى، على من أخرجه إلى العالم ومن تلقفه ومن حاول أن يغزل منه ثوبًا جيدًا، ليسألني سؤالًا في منتصف الكلام، بلا مقدمات له، ودون أن ينتظر إجابة، مستنكرا:

ـ من قال إننا حضارة روحية، وإن أوروبا وأمريكا حضارتان ماديتان؟

ما الذي جعله يقول ذلك فجأة؟ قلت لنفسي حينها إنه ـ لا بد ـ تذكر نظرات فراشي المدرسة أو سخرية الطلبة منه، أو اجتماع عميد الكلية ورئيس الجامعة وأستاذ قديم للمادة التي يدرسها معه، والقرار الذي اتخذوه بشأنه، دون اعتبار لحالته النفسية، ولكني كنت مخطئا في افتراضاتي، فالأستاذ عندما زارني لم تكن حادثة الجامعة هي الحدث الرئيسي، والذي جعل قلبه وعقله مثل مغناطيس يجمع الخيبات، والانهزامات، والشروخ العميقة، وصدأ الأحداث.

فلأول مرة منذ حادثة المدرج كان مسار أفكاره متصلًا، لا يحيد، مبررًا، كما ينبغي لأستاذ جامعة، أرق قليلا من رجل علمي، متأثرًا بحكاية عبد الله بن المبارك وسخرية تاجر خيوط، وكل هذه الفوضى التي تظهر في كلماته لم تكن ناتجة عن إنسان متأزم بل تجاوز أزمته، واتخذ قراره، حتى لو كان هذا القرار هو الهروب إلى أقاصي الأرض، الذهاب إلى مكان بعيد، أبعد من أن يحمل ندوبه معه، الهروب إلى مكان لم يوجد بعد، بل سيوجده الهروب إليه، ومن ثم جاء للشخص الوحيد الذي توسم فيه الأمانة:

ـ سأسافر خلال يومين، لا أحد يعرف غيرك، ولا حتى زوجتي، حدث الأمر بسرعة وكان عليَّ إنهاء الكثير من التفاصيل الروتينية، أعلم أن هذه طريقة سيئة للوداع، ولكني بمجرد أن خطرت الفكرة برأسي لم أستطع أن أصبر ولو إلى الصباح، أريد أن أكون خفيفًا ومستعدًّا عندما تأتي اللحظة؛ لهذا سأعطيك شيئًا تحفظه لي.

شرع في إخراج ما جاء أساسا ليعطيه لي من جيبه وهو يتحدث، ملفوفا في عدة طيات من ورق الجرائد، لا تشي إلا بحجمه وشكله، محبوكًا ببلاستر شفاف قوي، ومكتوبًا عليه اسم الأستاذ بقلم فسفوري أزرق سيضيع حبره مع النقل والتلامس والزمن.

ـ هذا الشيء على سبيل الأمانة، لا تعطه لأحد، لا تفض السيلوفانة (قال ضاحكا بمرارة)، لا تطلع على ما فيه، وفي حال أنك تيقنت من موتي يمكنك أن تعطيه لزوجتي.

سألته مندهشا:

ـ ما هذا؟

لا قيمة للمقدمات إذن، لا في الحكايات ولا في الحياة، وليس ما تغزل عليه دائما هو المناط، فقبل أن تنفرج يد الأستاذ ويبين الضوء الكابي في غرفتي ماهية ما أخرجه من جيبه، توقعت أن يكون أشياء كثيرة، قريبة الشبه بالموقف والزيارة، من عينة ما قد يتركه الناس للناس قبل أن يسافروا، مالًا أو ذهبًا، مذكرات شخصية يخشى أن يعبث العابثون بها، كان الشيء الذي أسقطه الأستاذ على فراشي آخر شيء توقعت أن يكونه، وكما أخبرني، بلا إلحاح حتى، مؤكدا حدس النظرة الأولى من الحجم والشكل، مجرد هاتف شخصي.

* * *

يحدث كثيرا، أن يترك مسافر مع شخص غريب عنه شيئًا يحمل قيمة عاطفية أو مادية لفترة طويلة، عالما أنه ـ ليس مثل الأهل ـ لا يمتلك الحق في التصرف، أو التملك، شيئًا أهم من أن يحمله معه، عالما أنه قد يعبر بحرا وتتعرض أغراضه للغرق،

أو يسافر جوًّا وتضيع حقائبه، قد يصادف نقطة تفتيش تقلب أشياءه رأسا على عقب.

والمرء عندما يسافر يكون الوطن أوثق إليه من جلده وأحشائه، أوثق حتى من أفكاره الدائرة في رأسه، ربما يضيع ويعود شخصا غير الشخص، ولكن الوطن يظل كما هو، الأشياء كما تركناها، والناس تغيروا تغيرا خفيفا يمكن احتماله، ولحظات الجنون والكفر التي مررنا بها بعيدا لم تمس ديكور الماضي العتيق.

ولكن هذه صورة كلاسيكية تلك التي وقعت في ذهني، لا تفسر المقدمات ولا التمهيد ولا التوقيت الغريب، ولا المرارة التي صاحبت حركة يده وهو يضع الشيء على ملاءة سريري.

بالفعل، قال لي إنه ظل يحمل هذا الهاتف ثلاث سنوات، خائفا من احتمالات شتى ليس منها نسيانه، فهو أوثق لديه من ذراعه، إلا أنه منفصل، ولكن يطاله الخوف من أن يضيع أو يُسرق، خلال ثورة وثورة تصحيحية وحكومات تعاقبت وغياب الأمن وعودته، وانكشاف الستر عن أسرار دول عظمى، ووباء انتشر وتحور عدة مرات ليقتل عددًا كبيرًا من الناس حول العالم، وعشر مرات تحذيرية ـ على الأقل ـ من سقوط نيزك أو اصطدام مذنب ونهاية الحضارة، انتقل جميع الناس بين شتى أنواع القلق؛ قلق على حال البلد وعلى لقمة العيش وعلى مستقبل أولادهم، قلق من فتنة طائفية ستقسم البلد إلى نصفين، ومن أزمات هوية

ستقسم النصف الآخر إلى نصفين آخرين، قلق المهتمين بحقوق الإنسان، وعلى ضياع ما جمعته البشرية خلال قرون متطاولة من فن وعلم. أما هو فلم يكن يعاني إلا من قلق واحد لا يتبدل، لا يتحور ولا يضربه نيزك، والقلق له هواجسه، فلربما استوقفه شرطي في كمين من أكمنة الطريق واستلب منه هذا الهاتف طالبا منه أن يفتحه، سرقه لص وتمكن من نشر ما يحتويه، أو اختطفته كائنات فضائية وفتحت هاتفه باحثة عن آثار الحضارة فيما يحمله وفككوا شفرته إلى مكنون سره المخبأ، خلال ثلاثة أعوام ـ قال لي ـ ظل يخشى السفر في المواصلات العامة بشتى الطرق، يتفاداها بإسراف، ويتجنب الزحام، والاحتكاك بالآخرين، يتفادى الموت والسماوات المفتوحة والعدوى، والشرفات القديمة التي قد تنهار عليه في أي وقت، وعبور الطرق السريعة، لقد حول نفسه إلى صندوق أمانة حي يسير على قدمين.

لا شك أنه كان خجلا من نفسه وهو يعترف لي أنه عاش هذه الحياة العبثية، لم يكن خجلًا وليد الاعتراف اللحظي، بل عتقه مرور الوقت، وصار أقرب إلى أسف لم يعد يملك زمامه، ولكنه أسف لا يمنعه من التفكير ولم يمنعه طيلة هذه السنوات الثلاث من السعي إلى تخفيف الاحتمالات، أخبرني أنه فكر ذات مرة في شراء خزنة حديدية ولكن ما أسهل أن يفتحها لص خزائن، أن تُحمل الخزنة وتوضع في فرن ليتحول معدنها إلى جمرة ملتهبة خلال ساعة واحدة ليتلف ما بداخلها، فكر أن يتعلم القيادة وأن يكرس

الكثير من ماله القليل لشراء سيارة خاصة من أجل السفر؛ لكيلا يتعرض لما يتعرض له عوام الناس من إيقاف وتفتيش.

ثم عثر على حل وسيط، زميل أستاذ لديه سيارة خاصة يقودها يوميًّا إلى الجامعة ويمر ضمن ما يمر ببلدته الصغيرة ، تعرف عليه وعرفه بنفسه، عرض عليه المسألة، دخل في الموضوع مباشرة قائلا إن بعض الزملاء أخبروه أن لديه سيارة وهذه فرصة لا تعوض، يمكننا أن نتشارك الوقود وتصطحبني، تناقشا كأي رجلين علميين في التفاصيل الصغيرة، بمثابة إعداد عقد شفهي، في صرامة التعارف الأوليّ، وحذر الوقوع في الخجل وضياع الحق وضع الأستاذ الزميل القواعد: لن أنتظرك بعد انتهاء دروسي أكثر من ساعة، حاول أن تضبط مواعيد محاضراتك مع إدارة الجامعة، نصف ثمن البنزين غير كافٍ لتغطية تكلفة حمل إنسان آخر معي، ولا يعوضني عن تحولي من مالك سيارة خاصة إلى سائق خصوصي، ولكني لن آخذ منك ثمن القيادة، فقط نصف غيار الزيت ونصف أجرة الميكانيكي والكهربائي والعفشجي، فأنا أكشف على السيارة بشكل دوري لكيلا تتعطل مني في الطريق. تناقشا كمسألة رياضية، وسأله الأستاذ الزميل سؤالا عابرا في نهاية الحوار: هل تمانع في التقاط الغرباء؟ نعم، من الطريق لشغل المكانين المتبقيين؛ إذ إن هذا سيجعلك تدفع ثلاثة أرباع الأجرة، انتظر! هل تلتقط الناس من الطريق وتأخذ أجرة؟ غمز الآخر بعينه وقال: لا طبعا، الأجرة هي الكلمة الحسنة

والوجه الحسن، اكتشف الأستاذ أنه هازل، فَرِحٌ بالصفقة الرابحة التي عقدها. مكتبة سُر مَن قرأ

والأستاذ لم يكن حزينا رغم فداحة ما سينفقه، كان مطمئنا على الأقل في وجود وسيلة مواصلات خاصة، ورغم اضطراره للسفر معه مبكرا، قبل ميعاد محاضراته، فإنه مضطرٌّ بالتبعية إلى البحث عن مكان عام لينتظر فيه ميعاد محاضراته، بعيدا عن الجامعة وعن طلابه؛ ليتفادى الأسئلة الفضولية، هكذا دشن أول وجوده في المكتبة العامة، دون أن يدرك أن صعود أول درجة له على سلم المكتبة هو بداية صعوده على سلم بيتنا ليضع ما حرص على إخفائه عن الأنظار طيلة ثلاث سنوات في حوزتي.

ـ هل تريد أن تعرف ما الحالة التي يتواجد عليها شخصان مثلنا، أرواحهما ليست أخف من أبدانهما ولا أثقل؟

التواجد الإنساني له درجات عديدة، بداية من اللا وجود، الطيش واللا مبالاة، السعي إلى الاكتفاء بالوجود في الظل، وعندما تدفع الجسد حادثة ما ليعبر أعتاب هذا الوجود المتعادل؛ حيث لا روح أثقل ولا جسد، يكتشف أنه لم يتبقَّ على السقوط من حافة الهاوية إلا أن يحاول الوجود أو يقلده، يدرب الجسد ويجبره ليكون متوازنا مع الروح القلقة من خلال الحركة السريعة وافتعال الشرر، الجسد الذي يعرف جيدا أنه إن لم يتحرك بمقدار سرعة معينة فسيسقط مثل حجر وقع في بركة ماء.

في الصيف، في الشتاء، في الربيع والخريف، يلقي ببصره من نافذة سيارة مسرعة أو مبطئة، يتقلب في المطبات مثل منارة سفن طافية على الماء تقلبها الموجات، يصفع الريح والمطر الأشياء من حوله، وتنفجر الأبواغ والمتك وأوراق الشجر والملابس الملونة والبهجة والحزن ووجوه الناس، تتعاقب وتتبدد وتصفر وتختفي وتغيب، ينظر من نافذة المكتبة إلى المارة والسيارات، ومن نوافذ قاعات المحاضرات إلى الطلبة المتقلبين على عشب الساحات الخلفية يتبادلون الحب والعداوات أو مهرولين تحت المطر يختبئون تحت الأفاريز، العالم مستمر، ولعدد لا متناهٍ من المرات تمس أصابعه مسًّا خفيفًا الهاتف في جيبه فيطمئن لوجوده، ويفزعه أن عالمه هو فقط الذي توقف.

* * *

اضطراره للسفر مبكرا مع الأستاذ الزميل، وانتظار مواعيد محاضراته، قبل (وبعد) قرار إيقافه عن التدريس المباشر، بعد أن أصبح واجبه الوحيد هو التوقيع في دفتر حضور وانصراف، جعله مضطرًّا إلى تمرير وقت فراغه بالمكتبة العامة؛ مكان جيد ليخبئ فيه جسده الثقيل؛ ليريح فيه البدن المتحول تدريجيًّا إلى صخر من لمسة حزن، المكتبة مكان جيد من عدة نواحٍ، الأمناء يعرفونه بناء على توصية سعى إليها عند رئيس الجامعة، وليكون آمنا من اللصوص العابرين، فمن ذا الذي يدخل إلى مكتبة عامة ويشهر

سلاحًا ليسرق من الجالسين أموالهم وهواتفهم وحليهم؟ المكتبة مكان كئيب عند العوام ومظنة تواجد للمفلسين؛ فالأغنياء لا يقرءون وإن قرءوا ففي بيوتهم، وضع الأستاذ عشرات الاحتمالات وسعى إلى تغطيتها وتقليص خطرها، عدا احتمال واحد، نابع من كون المنطقة مليئة بالبنوك وماكينات الصرافة الآلية.

والخمول ـ للأسف ـ يُعلِّم مطاردة شتى الأفكار العبثية بلا طائل، الخمول والاستيقاظ مبكرا للسفر الصباحي والطعام البارد على معدة فارغة، والقلق المستمر من حدوث أمر واحد، يتحرك الذهن في أماكن بعيدة مثل أحاجٍ (صدق أو لا تصدق)، وماذا لو، (ماذا لو) أن جريمة قد ارتكبتْ، جريمة قتل أو سرقة، وربما قتل بعد سرقة؟ اللص ينشل أحد الموظفين بعد أن قبض راتبه للتو من ماكينة الـ ATM، ولأننا في هذا الجزء من العالم حيث لا يتخلى أحد عن ماله ولو تحت تهديد السلاح، يتشبث الموظف بملابس اللص رغم رؤيته للسكين، يصيح مستغيثا فيطعنه اللص ويفر هاربا.

يلتف الناس حول المطعون، يموت الموظف قبل أن تأتي سيارة الإسعاف، وتأتي الشرطة لتنتشر في المكان باحثة عن اللص القاتل؛ فالشرطة لا تأتي لجريمة نشل عادية، تتوقف سيارة على الرصيف، يدخل من باب المكتبة رجل شرطة يحمل (طبنجة)، واثنان آخران يحملان بندقيتيْن عاديتيْن، يشهران سلاحيْهما، والسبب هو أن آثار اللص انتهت عند المكتبة، بعد تفتيش سريع

لا يعثرون على أثر للمال ولا أداة القتل، ولكن انعدام الأدلة ليس دليلا على انعدام الجريمة، كل فرد من الجالسين متهم محتمل، فُتطرح الأسئلة التقليدية:

ـ من أنت؟ ولماذا أتيت إلى المكتبة؟

بماذا سيجيب الأستاذ؟ أنا أستاذ جامعي، بالجامعة القريبة، أعمل بنظام الوقت المستقطع، أبيع حصصي للجامعات وبدورهم يبيعونها للطلبة الذين يبيعون وهم طلب العلم إلى أهاليهم والمجتمع مقابل الدعم المادي واللوجستي لفترات مؤقتة، أمتلك حجة قوية للبقاء في مكتبة عامة؛ إذ إنني لست من المدينة، ولست مدرسا مقيما، لماذا لا أجلس في مكتبي بالجامعة؟ ليس لي مكتب، كما قلت لك، لست مدرسًا مقيمًا، عدد الحصص التي أعطيها لا تؤهلني للمطالبة بمكتب خاص، أفضل قضاء الأوقات قبل الحصص في مكتبة عامة، لماذا لا أجلس في مكتبة الجامعة؟ (يبتسم الأستاذ)، مكتبات الجامعة مكتظة بالطلبة، وأنا أحبذ الانتظار هنا، ما السبب؟ الهدوء، الصمت، فضيلة أن لا أحد يعرفك، ولا احتمال أن يعطس أحدهم في وجهك فتصاب بالمرض المنتشر هذه الأيام.

إجابة نموذجية، لو كان محققا نابها لعرف أنها لم تخلُ من الكذب، أمامه هاتف، لابتوب، حقيبة بها كتب دراسية، وكشكول تحضير، وشرائح بروجكتور، إذا أصر المحقق على التفتيش

فسيجدون أن كل شيء طبيعي ومبرر، اللابتوب ليس عليه ما يريب، كل ما به يخص العمل والعائلة (إجابة نموذجية أخرى: ضع كلمتي العمل والعائلة في أي جملة لتصير منزوعة من الشبهات) إلا إذا لاحظ المحقق ارتعادًا خافتًا في صوته عندما نطق كلمة العائلة، ولكنه سيكون مشغولا بالبحث عن منفضة سجائر بعد أن أشعل سيجارته، غير مدرك أن هذه مكتبة عامة، والاصفرار الذي يلوح على لافتة ممنوع التدخين وممنوع الكلام وممنوع اصطحاب الطعام (والحيوانات الأليفة) يؤكد أن الأمر أزلي؛ فالمكتبات والمستشفيات لا يجب أن تُشعل فيها السجائر؛ لأن المرضى والكتب كائنات ضعيفة، يندلع فيها السعال والنار على حد سواء لأتفه الأسباب، ولا تطفئهما شربة ماء، ولافتة ممنوع التدخين تستتبع أمرًا بديهيًّا: لا وجود لمنافض السجائر، ورغم ذلك يبحث رجل الشرطة بعينه عن إحداها فلا يجد، فيحمل أحد المرافقين له ـ وكأنه قرأ أفكاره ـ إلى امتداد يده بالسيجارة طبقا فارغا استلفه من أمين المكتبة، يدق على طرفه ليسَّاقط التبغ المحترق فيه، ولكنه لا يستعمله لإطفاء سيجارته لكيلا يفسده، بل يلقيها على الأرض في إشارة إلى أنه القانون هنا، ويدوس عليها بقدمه في إشارة تالية إلى أنه رغم سيطرته يعرف مكامن الخطر ومعنى ترك سيجارة مشتعلة في مكان مكتظ بالورق.

لم نأتِ لنهزل هنا، يأمر بتفتيش الجميع، حتى أمين المكتبة، واحتراما لمنصب الأستاذ الجامعي يطلب منه أن يفرغ جيوبه على المنضدة بينهما، مصوبا إليه نظرة مؤداها أننا لا زلنا نحترم العلم في هذه البقعة من الأرض رغم كل شيء، إلا أن القدر يخبئ للمحقق ما يجعله يتراجع عن احترامه، بينما يفرغ أستاذ الجامعة جيوبه يرى، ضمن ما وضعه على النضد، شريط حبوب فيافاج ١٠٠ مجم ذات اللون البنفسجي لعلاج ارتفاع ضغط دم الشريان الرئوي، لا شيء على ظاهره ـ أيضًا ـ في هذه البقعة من الأرض، ولا يستلزم الأمر أن تكون متزوجا لتعرف أنها تستخدم لضعف الانتصاب، أي تحقيق جاد لن يصمد أمامه هذا الادعاء، لا تاريخ مرضيًّا للأستاذ يستدعي أن يحمل هذه الحبوب معه، إذن فهو يحملها للسبب الآخر، ولكن لماذا لا تحمل حبوبا عادية؟ هل لأن الناس تسيء الظن بالألوان؛ اللون الأزرق على الخصوص ذو سمعة سيئة في هذه الأمور، لو أن المحقق غير فضولي فلن يخوض في الأمر، ولو خطر هذا السؤال بذهنه فلن يطرحه؛ حفاظا على هيبة العدالة والعلم، أما إذا كان وقحا مخضرما فسيسأله: لماذا تحمل حبوبا مقوية جنسيًّا في مدينة بعيدة عن بيتك عشرات الكيلو مترات؟ وربما غمز بعينه في إشارة وقحة، هل تخبئ عنا عشيقة سرية، أستاذة مثلك، لديها ساقان مثقفتان ومؤخرة تهتز بغضب راقٍ، أم فتاة هوى تتيح لأستاذ جامعة إظهار ما كمن من نزواته؟

لنترك إجابة هذا السؤال لمسار الحكاية، وربما بعد أن ينتهي مسار الحكاية.

هل سيلاحظ المحقق أنه لا توجد سلسلة مفاتيح ضمن حاجيات الأستاذ؟ وقد يسأله: أين مفاتيحك؟ فيجيبه أي إجابة معتادة على هذا النوع من الأسئلة: نسيتها اليوم، في السروال الآخر الذي أرتديه عادة، ولكني خرجت اليوم متعجلا فلم أنقل كل شيء. لن يجيبه الأستاذ الإجابة الحقيقية: لا أحملها ولا أفهم الفكرة من احتفاظ الرجال بالمفاتيح؛ فالزوجة دائما باقية في البيت، وإن خرجت فلا تذهب بعيدا، تذهب بعدك وتأتي قبلك، حتى لو لم تكن ربة بيت، أليس كذلك؟ لماذا يحمل الرجل إذن مفتاح بيته أو درج مكتبه؟ تقول للاحتياط؟ للحالات الطارئة؟ ولا لهذا؟ فهناك دائما مفتاح احتياطي مُحتفظ به في مكان سري على الدرج، في مزهرية، أسفل دواسة أحذية، داخل حذاء قديم في خزنة الأحذية، ينظر المحقق إلى أستاذ الجامعة في ريبة؛ فالرجل لا يثق أبدا برجل لا يحمل سلسلة مفاتيح ، لدرجة أنه إذا التقى رجلان يبتدر كل واحد منهما الآخر بإخراج مفاتيحه ووضعها أمامهما على المنضدة خلال الحديث، يتخففان من حملها كأنها تزن أطنانا، وإذا لم يكن هناك مكان لوضعها تخرج أيضًا، وتبقى في الأيدي، ساكنة تارة ومهتزة تارة، وعند احتدام الحوار يبدأ الرجال في فرزها دون وعي، تقليبها وتفصيصها كالمسبحة، إظهارها للخصم؛ كسبب للإخافة ربما، وللافتخار

المجتمعي، وإذا انتهى الرجل من تفصيص مفاتيحه شرع في هزها مرة أخرى كأنه على وشك أن يلقيها كحجر نرد في مساحة الحوار بينه وبين غريمه، معروف على أي رقم سيستقر مسبقا، كل مفتاح يعني رقما في لعبة الرجال للسيطرة، مفتاح سيارة أم دراجة نارية، فيلا أم شقة، ومن نوع المفتاح تستطيع أن تخمن نوع القفل وحجم الباب، نوع السيارة وثمنها، إنها استعارة لجزء من لغة سرية قديمة جدًّا أقدم من لغات اللسان، الصفة الموروثة من الذكر الأول، موروثة من السلوك الحيواني القديم، في البدء كانت العضلات ثم أصبحت المفاتيح، وإذا اجتمع رجلان تناطحا أول ما يتناطحان باكتظاظ المحفظة وسلسلة المفاتيح.

في السفر يكون لدى الرجل سبب إضافي ليحمل مفاتيحه معه، تعطيه المفاتيح ثقة زائدة، إنها تضمن له العودة ليجد الحال كما تركه، مثل أحزمة عفة متتالية، يولج الرجل مفتاح السيارة في الكونتاكت فتدور، يولجه في باب الشقة فتنفتح على مصراعيها وتستقبله زوجته على الباب فاتحة ذراعيها، كل هذا مجاز للمفتاح اللحمي الذي يحمله الرجل، يظهره للمرأة فتفتح ساقيها، يولجه فيها فتفتح قلبها، كما ترى، لا تعقيدات تُذكر طالما أنك تحمل المفاتيح المناسبة.

ولكن ماذا لو فتح الباب ـ على الحقيقة ـ ولم يجد أحدًا، الصالة فارغة، لا أطباق على مائدة الطعام، ولا قدور طبخ تئز

بالبخار في المطبخ؟ من يملك القدرة على ادعاء الثقة في أن يقول إن زوجته بانتظاره في البيت الآن؟ لقد قالها قبلنا عشرات الأزواج المخدوعين، وفي الوقت الذي امتلك فيه مفتاح باب شقته وحق الدخول بلا استئذان، امتلكت هي القدرة على إفراغ حياته من مضمونها، بئر معطلة وقصر مشيد، وهو، أستاذ الجامعة، لقد رمى سلسلة مفاتيحه منذ ثلاث سنوات، مقررا أن يواجه هذا الهاجس على الباب، قبل أن تولغ هذه الأمتار القليلة في قلبه كما يولغ فم كلب شره جائع في إناء نظيف طاهر فينجسه، يدق الباب فيفتح أو لا يفتح، يدق أكثر، على استعداد أن يكسر براجمه بدلا من أن يكسر قلبه، تستيقظ الزوجة الغارقة في النوم ـ أو بعد أن تكون قد أخفت عشيقها في خزانة الملابس ـ فتفتح وهي تترنح، تسأله: أين مفاتيحك؟ لماذا تنساها باستمرار؟ هل ضاعت مرة أخرى؟ لا يجيبها، تستطيع تفريعة النهر المارة أسفل الكوبري الذي يمر عليه يوميًّا أن تأتي فيفتح الباب ففي قاعه استقرت عشرات النسخ، لقد كون صانع المفاتيح ثروة من استنساخ مفتاح باب شقتنا فقط.

* * *

يدق قلب الأستاذ بضراوة عندما يلتقط المحقق الهاتف الآخر، يغص بالدم البارد، لقد علمته التجربة على مدى ثلاث سنوات أن لا يخبئ ما يود إخفاءه، وأن يتركه للعيان، ولكن القلب لم يتشبع

بعد بتلك الفلسفة، ففي كل مرة يمسك أحدهم الهاتف الآخر يجفل كأنما مُست عورته بيد غريبة.

ـ لماذا تحمل هاتفين معك؟

لا، لن يكون هذا هو السؤال، سيكون سؤالًا غبيًّا على أي حال، ففي هذا الجزء من العالم ـ أيضًا ـ معظم الناس تقريبا يملكون هاتفين؛ هاتفًا للمكالمات معرضًا للسقوط والنسيان والبلل والسرقة، والآخر نحفظه في حقائبنا، نستخدمه للتواصل مع العالم المتحضر، يستخدمه الرجال والنساء للتواصل مع قصصهم الخيالية، مع أحلام الغسق، لكتابة الصفحات التي لم يكن مقدرا لها أن تُكتب من حياتهم، ولكن هل يملك المحقق الذكاء الكافي لينتبه إلى المعنى من أنهما هاتفان متقاربان في القيمة، مقاسا الشاشة والإصدار الذي يحمله من برنامج التشغيل، ولكن أحدهما محمي بجراب وردي كأن صاحبته امرأة، امرأة تستعمل هاتفها أكثر من اللازم لأنه مصاب بخبطات مؤذية لا تبرير لها، تفرغ غضبها الرومانسي فيه، تعض عليه، تخبطه على حافة منضدة الطعام من الفرحة والنشوة والشبق؟ إنها امرأة تحب هاتفها، تبتسم له الابتسامات التي لا تبتسمها لزوجها، تدعوه إلى فراشها كل ليلة، تحتضنه، تضاجعه وتصرخ، تخربش ظهره فتُسقطه، أو تفرغ شحنتها الشبقة فتتخدر أعصابها وتنام بين أحضان هاتفها، ليقع، وتنتج فيه هذه الندوب والشروخ، وعندما يتلف تماما يسألها زوجها:

ـ لماذا أنتِ بالذات من يتلف هاتفه بسرعة؟

يقلب الزوج الهاتف التالف في يده: خسارة أن نرميه، إنه جديد، إصدار هذا العام، عندي فكرة، سأصلحه لك، سأصلحه أو أبيعه وأشتري لك غيره، تقول في صرامة خائفة: لا تصلحْه ولا تبعْه، سمعت أن هناك برامج تستطيع أن تأتي بالصور والأشياء المحذوفة من ذاكرة الهاتف وأن من يفعل ذلك ينشرها على الإنترنت، أنت تعلم أنني أكلم أختي، وزوجها غيور، وهي ترسل لي صورًا لها، لا تريد تطليقها من أجل بضعة جنيهات.

ـ هاتف حريمي، أليس كذلك؟

سيقول المحقق، يتلون وجهك، كيف عرفت؟ يقول مهنئا نفسه: أنا رجل شرطة، أليس كذلك؟ هذه الخبطات والندوب لا يمكن أن تحدثها إلا امرأة أو رجل أعمى؛ فهن سيئات في استعمال كل شيء، السيارات والهواتف، إلا قدور الطبخ، ألم ترَ سيارة تقودها امرأة قبل ذلك؟ لا، لم أرَ، تعالَ معي إلى الرصيف الآن وسأشير لك على السيارات التي تقودها أو قادتها امرأة، سأميزها من ألف سيارة، دون النظر إلى الرخص، خبطة هنا، انبعاج هناك، احتكاك، إكصدام ساقط جزئيًّا، أو مخلوع من مكانه، شكمان محكوك من مطب عالٍ.

في أثناء حديثه يمرر أصابعه على الخدوش والشروخ، يقرب الشاشة إلى عينه قليلا، ممعنا في لعب دور المحقق الذكي، وقد أبهجه هذا الانتصار الصغير، منتبها إلى أن الشرخ

البسيط بالجانب الأيمن من الشاشة لا يبدأ من حافة الشاشة، ليس ناتجا إذن عن سقطة ولا اصطدام، الشرخ في منتصف ثلث الشاشة الأول، ناتج عن انضغاط، هل تراه؟ نعم أراه، لست أعمى، لماذا أنت غاضب الآن فجأة؟ لا، لست غاضبا، أنت غاضب، هذا واضح من نبرة صوتك، ولكني أعذرك، لو كنت متزوجا امرأة مثل زوجتك، وتفسد هاتفها بهذه الطريقة، لكنت غاضبا أكثر منك، ولكن أخبرني، كيف تمكنت من إحداث هذا الشرخ؟ سقط منها؟ غير معقول طبعا، لو سقط عشرات المرات فلن ينتج هذا الشرخ الغريب، إن هذا يشبه أن تصدم سيارة في جدار فلا يتحطم إلا المقعد الخلفي، هيَّا، أخبرني، عن جد، كيف تمكنت زوجتك من إحداث هذا الشرخ الغريب؟

تحت إلحاح لن يفتر سيضطر الأستاذ إلى أن يجيب: لقد نامت عليه، معذرة، ماذا تقول؟ نامت على ماذا؟ على الهاتف، غابت في النوم وهو معها، سقط من المخدة على المرتبة وتقلبت عليه، يشرق وجه المحقق، فعلا، هذا صحيح، من الصعب استنتاجه حتى لرجل ذكي مثلي.

ـ الآن لنرَ ما بداخل هذا الهاتف؛ فربما كانت زوجتك شريكة للص، يتضاحك المحقق، يضغط على زر الإضاءة فتظل الشاشة سوداء، الهاتف مغلق، يضغط مطولا فلا يستجيب أيضًا، يسأله

المحقق عندئذ، في تعجب مقترن بغضب شخص لم يتعود الأشياء المغلقة، وأن تنفتح له الأشياء من تلقاء نفسها:

ـ لماذا تحمل هاتفًا بلا بطارية؟

* * *

سيجيب الأستاذ عن هذا السؤال وعلى عشرات الأسئلة التي يمكن أن تعقبه؛ فقد أخضع نفسه لعشرات الاستجوابات المتخيلة، الذكي منها والغبي؛ بغرض حماية الشيء الوحيد الذي يريد حمايته أكثر من روحه، وخلال السنوات الثلاث كرس جزءًا كبيرًا من وقته لقراءة مذكرات المعتقلين السياسيين في العصور المختلفة، مراحل اعتقالهم الأولى، وصف التفتيش والانتهاك، بقر المراتب والمخدات، تحطيم الأثاث وتمزيق الكتب؛ تحسبًا، قرأ أيضًا في علم النفس، في جنون السيطرة، في التركيبة النفسية للمهووسين بالسلطة، والحد الذي يمكن أن تصل إليه القوانين في عصور القوة الغاشمة، كيف تتغير، ومتى، ولماذا؟ فقانون واحد قد يقلب عالمه رأسا على عقب، وقانون يمكن أن ينشأ أو يتغير وهو نائم ليلا، ويسري القانون وهو يغسل وجهه صباحا، ويتم تطبيقه عليه وهو يركب وسيلة مواصلات، والقوة الغاشمة ليست تلك التي تمتلكها الحكومة فقط، بل الأفراد المسيطرون كذلك، اللصوص وقاطعو الطريق والمغتصبون، قرأ مئات المقالات وشاهد أفلاما تسجيلية، وتصريحات كافية ليدرك أن الصورة

البدائية للسلب لم تعد الصورة الأشد إقلاقا طالما التزمت بأساليب الأمان، وكافية أيضًا ليدرك أن المراقبة السرية للهواتف لن تنقطع حتى لو أصدروا ألف قانون يمنع ويجرم، في عالم مليء بالمراقبين السريين، لا خصوصية، ولكنه مطمئن من هذه الناحية؛ فالمراقبة العامة لا يوجد بها ما يثير قلقه؛ فالبشر أكثر بكثير من أن تتم مراقبتهم بشكل شخصي، ولا تتم المراقبة في الأساس إلا لتحديد نمط، المراقبون السريون يطمحون فقط إلى تحديد نمط شخصي لك لبيعه للتجار وللمتحكمين في الأمم، إنهم لا يسجلون الهفوات ولا الكبائر، بقدر ما يدفعونك لارتكاب المزيد منها، وحزمة أسرارك المخزية لا قيمة لها بجانب الأسرار الكبرى.

هذا في الحال العام، المراقبة الجماعية، أما على مستوى الفرد فبرغم أنف القانون الذي يمنع التفتيش إلا بإذن من القاضي سيظل تفتيش الهواتف إجراء روتينيًّا في أكمنة الطريق، في ظل أو بدون وجود قانون للطوارئ، أو جريمة سرقة، أو وقوع حادث سير! ولا يوجد منهج للتفتيش، المنهج هو فحص كل شيء للمشتبه فيهم؛ المكالمات الصادرة والواردة، الرسائل الأخيرة، الصور، الفيديوهات، رسائل الواتس، والماسنجر، والتعليقات، والحالات المنشورة، انتهاك كامل للخصوصية، وتهم ضخمة موجهة يمكن أن يرفت شخص بسببها أو يسجن لمجرد بضع كلمات كتبها على سبيل الدعابة.

لهذا يحمل الأستاذ الهاتف بلا بطارية أو ببطارية فارغة على الدوام؛ فهاتف بلا بطارية أو فارغ من الشحن هو هاتف تالف،

والهاتف التالف لا يمكن تفتيشه، علاوة على وجود هاتف الأستاذ الشخصي كنوع من الدروع.

خلال ثلاث سنوات تم تفتيش هاتف الأستاذ خمس مرات على الأقل، يعدها عدًّا ويسجل مددها الزمنية، أقل مدة زمنية كانت عشر دقائق، إنهم مدربون من خلال التجربة على ذلك، مدربون على من يشكون في هاتفه، والأستاذ مثار للشك، ومدربون على التفتيش نفسه، خلال ثلاث دقائق يكون قد فتش الجيوب الخارجية للهاتف، وفي الدقائق المتبقية يفتح خزنة الأمان، يفتح الهاتف ويغلقه ليرى إن كان على وضع يمنع عبث الأطفال أم لا، فهو ليس طفلا، بل هو رجل مسئول عن الأمن، والدليل أنه لا يخمن كلمات السر كاللصوص، بل يعطيك الهاتف على الفور لتكتب له كلمة السر دون أن تجرؤ على أن تنبس ببنت شفة، مسلحا بكلمة واحدة: افتح أو انزل، النزول إلى كشك الضابط الأشبه بالثكنة، وهناك ستفتح كل صناديق أسرارك، ستفتح رأسك إن لزم الأمر، مجازا وعلى الحقيقة.

لذا ملأ الأستاذ هاتفه بالأشياء المثيرة التي لا تليق، ولا يمكن توجيه تهمة من خلالها إلا في دولة طالبان، وضعها في خزنة الأمان ووضع لها كلمة سر طويلة، تدرب في أثناء كتابتها على أن ترتعش يده، وهو يعيد الهاتف يحرص على أن يخفض الصوت تماما وأن يزين عينه بنظرة رجاء قبل أن يناوله لأمين الشرطة

أو العسكري الذي يبتسم ابتسامة خبيثة أول ما يقع بصره على الملفات وعناوينها، تتسع ابتسامته وهو يقوم متعمدا بضغط زر الصوت ليرفعه إلى آخر درجة ممكنة، لتكتسح فضاء التاكس أو الباص أو الميني باص، عشرات التأوهات الجريحة والصيحات الأجنبية: (فك مي، فك مي، بليز فك مي)، مؤديا واجبه المهني بتقزز، كاملا للنهاية، ليلقيه في حجر أستاذ الجامعة الخجول، ناصحا إياه: اتقِ الله يا أستاذ.

خلال هذه المرات التفتيشية تلقى عشرات النصائح والشتائم والدفعات في أثناء النزول، ذات مرة حشر أحدهم إصبعه في مؤخرته، وذات مرة أكل سائق ميني باص عليه ما تبقى من ورقة مالية كبيرة قائلا: يكفينا أنك نجست المقاعد! تصور، لماذا يفعل كل هذا، يصنع من نفسه هدفا، صنما في بلد كله مؤمنون؛ ليحمي الهاتف الآخر؟

ـ لماذا تحمل هاتفا بلا بطارية؟

في كمائن الطريق، أجاب الأستاذ ثلاث مرات عن هذا السؤال، عندما وصل الحد إلى تجاهل هاتفه المليء بالفيديوهات الإباحية، والولوغ في حقيبته، وإخراج الهاتف الآخر: إنه هاتف زوجتي، أخذته للإصلاح، وأين بطاريته؟ تالفة، سأشتري له واحدة جديدة بعد إصلاحه، لا تهتم الشرطة بهاتف ميت.

ولكن الحال مع المحقق في المكتبة مختلف، فقد صار يعرف أن الهاتف هاتف امرأة، تصورها وهي تتقلب على فراشها فتطأ ـ بصدرها

أو بطنها أو وركيها ـ هاتفها فتحدث به ذلك الشرخ البسيط دون أن تحطمه بالكامل، لا يحتاج الأمر لخيال واسع ليتخيل اللدونة والثقل، الزوايا الدافئة والتلافيف، وهو لا يعرف ما بالهاتف، ربما أكثر آماله أن يجد صورة للزوجة المتخيلة، صورة بمكياج كامل، أو بقميص نوم، رغم أن العالم مليء، ومهما بلغ الأمر فلن تزيد الصورة التي سيراها عن باقي صور السيدات الأخريات، لا ذراع ولا قدم زائدة، لن يكون لديها ثدي لؤلؤي أو مؤخرة يخرج منها الياقوت، ولكنها صورة خاصة، في لحظة خاصة، لم يرها إلا صاحبها، والله، وربما الزوج، والزوج أستاذ جامعة، ليس بلطجيًّا، رجل نظيف، مثقف، ولابد أن زوجته مثله، أو قريبة منه، والمحقق بشر قبل كل شيء، ولن يترك لعابه يسيل أكثر من ذلك، سينادي أحد العساكر المرافقين، يريه الهاتف، اذهب لأقرب محل هواتف، قل له: الباشا يقول لك: هاتِ بطارية لهاتف نوعه....، سيذهب العسكري مهرولا ويعود قبل أن يخفت دق خطواته من الآذان، وقد أتى ببطارية لم تُفض من غلافها ولم يُدفع فيها مليم، يضعها في الهاتف ويضغط زر التشغيل فتضاء الشاشة، بعد أن يكتمل التحميل يدفع الهاتف إلى الأستاذ بكل لباقة وأدب (تتناسب لهجة الطلب عكسيًّا مع العقاب الذي سيقع عليك في حال عدم استجابتك).

ـ افتح.

* * *

لتفادي الوصول إلى هذه النقطة في الحوار، حاول الأستاذ أن يجعل الشرخ ممتدًّا للنهاية، عبر الضغط الحذر بأصابعه، بآلة ليست حادة، ولكن الخوف من أن يتلف الشاشة بالكامل أرعد يديْه، وأجهض المحاولة، فكر في الاتجاه الآخر، سيخبر المحقق أنه لا يعرف كلمة السر، وهذا طبيعي؛ فالعديد من الأزواج لا يعرفون كلمات سر زوجاتهم والعكس، ولكنه يعرف أن المحقق لن يتراجع مع ذلك التبرير، ربما طلب منه أن يهاتف زوجته لتمليه له، سيضحك الأستاذ، ولكن هاتفها في يدك، كيف سأتصل بها؟ اتصل بهاتف الجيران إذن، هاتف البيت، هاتف أمها، هاتف العفريت الأزرق واحصل لي على كلمة السر، والحجة موجودة، هذا ليس هاتف زوجتك كما تدعي، بل هاتف القتيل، ولقد تخلصت من بطاريته، وهذا الكسر في شاشته نتج من مقاومته لك وأنت تسرقه، من السهل ادعاء ذلك رغم الحقيقة الواضحة، وإذا رفض الأستاذ أو تقاعس فسيحتجزه، ومعه كل رواد المكتبة، وأمينها الشاب، وكل من يتوقف على الرصيف ليشاهدوا كيف تقبض الحكومة على رواد مكتبة مساكين، يضعهم جميعا ويضعه معهم في زنزانة من قبيل الاشتباه، ويتركه هناك حتى يظهر له صاحب، أو صاحبة، ولن يفرج عنه إلا بعد أن تأتي، وتهز طولها أمامه وتفتح هاتفها؛ ليعلمه أن طلبات رجل السلطة ليست عبثًا وخبطًا عشوائيًّا.

لتفادي الوصول إلى هذه النقطة، وطد الأستاذ علاقته برجل شرطة آخر، أكبر سنًّا من أي رجل شرطة قد يقابله في شارع أو موجود في كمين أو محقق في جريمة؛ فوظيفة أستاذ الجامعة منجم للعلاقات الاجتماعية لمن يملك القدرة على التغاضي عن بعض الإجابات الخاطئة في امتحان المادة، ويمنح الدرجات الإضافية للفتية المناسبين، خاصة أولئك الذين يطلبون رقم هاتفه عندما توشك العجلة أن تهرسهم، لتفادي الوصول إلى هذه النقطة، وطد علاقته برجل شرطة آخر؛ تحسبا لموت أو غلق هاتف أو.. أو، ورجل سلطة آخر، وآخر، يسجل أرقامهم جميعا في ورقة يضعها في جيبه بشكل مستمر، ولن يستعملها إلا عند الضرورة القصوى.

لهذا فقط، وعند الوصول إلى هذه النقطة، فور أن يناوله المحقق الهاتف الآخر، ويطلب منه أن يفتحه سيفتحه ويضغط أحد هذه الأرقام التي سجلها مؤخرا، وعندما يفتح الخط في الجانب الآخر سيعرفه بنفسه، ويخبره بالورطة، هنا رجل شرطة مُصر على استجوابي ولا يعرف علاقتي بك، الأستاذ يناول الهاتف للمحقق الذي فوجئ بالحركة، ويستمتع بمشاهدة صدام السلطات غير المتكافئ، بمشهد سيارة ملاكي تحيد عن الطريق أمام بلدوزر، كاسحة ألغام منطلقة بلا فرامل، يعيد المحقق إليه الهاتف، يلقيه في حجره تقريبا، يلملم عساكره وأعقاب سجائره، وينهي تسليته بأخذ أسماء الموجودين، عناوينهم وأرقام هواتفهم،

متجاوزا الأستاذ، وكأنه غير موجود، لن يطالبه حتى بثمن البطارية الذي لم يدفعه.

لهذا قال لي الأستاذ وهو يناولني ورقة مسجِّلًا عليها أرقامًا وأسماء، الورقة الذهبية، كارت الولد:

ـ في البلد الذي سأسافر إليه لن أحتاج لهذه الأرقام، ستحتاجها أنت، إذا تعرضت للمضايقة في أي وقت، أو سرق لص أشياءك ومن ضمنها الهاتف، فاتصلْ بهذه الأرقام، جميعها لو استطعت، قل لهم إنك ابن أختي، وإنني أنا من أخبرتك أن تتصل بهم، سيتعاونون معك.

* * *

لا أدري، كم مرة خاض فيها الأستاذ ـ في خياله ـ الحوار الذي دار بيننا في تلك الليلة، قبل أن يذهب ويختفي، كم مرة أداره بخلوته بالمكتبة، وفي صمته الأبدي بسيارة زميله في رحلات الذهاب والإياب، محددا بدقة النقاط التي يجب أن أعرفها، والكلمات التي ستُقال بها، التأكيدات والتطمينات ومدى المعلومات التي ستحميني وتجعلني مدركا لنوايا الأشخاص من حولي بعد ذهابه، بداية من زوجته الملتاعة، وأقاربها الغاضبين، وحماة الفضيلة المتجهمين ومنهم أبي، وأمي الخائفة عليَّ حينًا والغاضبة مني أحيانا كثيرة، كلهم حاولوا انتزاع ما وضعه الأستاذ في يدي وطلب مني حفظه حتى يعود، مستخدمين طرقًا عدة،

برضا مني أو لا، وغصبا إذ لم تفلح الطرق السلمية، بالسرقة والضرب والتسليط، وإذ تنتهي كل محاولة بالفشل يسألونني السؤال الذي لم أستطع الإجابة عنه قط: لو كان قد أعطاك ذهبا أو مالا لوقفنا في صفك خوفا من أن يطالبك بها عندما يعود، ولكنه مجرد هاتف، كم تبلغ قيمته؟ وحتى لو طالبك به فسنعطيك ثمنه لو أردت.

تبسيط مخل، إن كنتم يا قوم مؤمنين بما تقولون فأعطوني عقود البيع والإيجار، عقود الزواج وقسائم الطلاق، اتفاقيات وهدنات وترسيمات الحدود بين الدول، أعطوني إياها إن استطعتم لأمزقها، وقولوا لأنفسكم: ما قيمة ورقة والحبر الذي عليها؟ ما قيمة كتاب يقيم ثورة دينية أو أساسًا علميًّا يغير العالم؟ هل أضع الأمور في نصابها الصحيح، أم أن قيمة الأشياء تأتي من مدى ثبات مبادئنا، ورؤيتنا؟

ولكني أعرف كيف يبدو لهم الأمر، وكأنني أخطئ باستمرار في لعبة التوصيل التي دربنا عليها الكبار في طفولتنا، تلك اللعبة التي تنمي مدى إدراكنا باستعمال الأشياء في مواضعها الصحيحة، يُرسم لك في ناحية من الصفحة سكين وسلاح ناري وهاتف ورسن كلب، وفي الناحية الأخرى المقابلة يُرسم درنة بطاطس ورجل ترديه رصاصة وفتاة تتحدث وكلب ينبح، أقوم أنا بتوصيل الهاتف بالرجل الذي أَرْدَتْه رصاصة والسلاح الناري

على الكلب الذي ينبح والسكين للفتاة التي تتحدث ورسن الكلب لدرنة البطاطس.

هذا ما فعله الأستاذ بي عبر حكايته، توصيل الأشياء بالمنطق الذي شرحه لي، بلا منطق يراه الآخرون، وإنما رؤية سطحية، لا تنتبه لحكايات خفية مضمرة في كل مشهد، هل استعمل الهاتف لتأجير قاتل للرجل الصريع، والسلاح استخدموه لقتل كلب مسعور، والسكين دالة على حدة لسان الفتاة؟ ورسن الكلب ما علاقته بدرنة بطاطس يا تُرى؟ المنطق خدعة الحكايات المباشرة.

أحيانا يراودني الشك في أن الأستاذ استغلني، وضعني في خانة لا أستطيع الخروج منها بحكم مبادئي، وأنني حتى لحظة كتابة هذه الحكاية لا زلت مستغلًّا منه، منقادا في الطريق الذي فتحه لي ولم يَتْرك لي خيارًا غير السير فيه.

لا شك أنه أدار عشرات الحوارات التخيلية بينه وبين عديد من الناس، حتى احترف الأمر، بعد أن وفروا له قدراته العقلية كمدرس، وفي أول حوار تخيلي أداره بيننا كان في المكتبة، أخبرني الأستاذ، بدأ بكتابة اسمي على ورقة أمامه، ولم يكن يدري لماذا كتبه، ففي هذه الفترة من حياته بدأ يستعيد التعرف على أشخاص ماضيه، كما هو الحال بعد كل (خيانة) لم نتوقع مصدرها، تتركنا مذهولين وقد امتلأت جعبتنا بثعابين الشك التي تقرصنا كل حين، كيف وصل بعيدا في ذاكرته إلى هذه المنطقة

من حياته، قبل خمس عشرة سنة على الأقل، عندما كنت مجرد تلميذ يسعى باحثا عمن يشرح له حصص الفيزياء المعقدة؟ ما علاقة الفيزياء بقصة خيانة، ولماذا خطر اسمي بباله في هذا اليوم؟ ومن اسمي بدأت تنمو خرائط اعتراف ومتاهات مصارحة، باحثا بعدها عن الحقيقة، رآني للمرة الأولى في الشارع وتعجب كم كبرت، رآني للمرة الثانية في المسجد وشرع يراقبني، وخصيصا ذهب للمسجد لمراقبتي، مدركا يقينيًّا أن هناك دورًا محجوزًا لي في حكايته، ولم يكن يعرف أنه الدور الأكبر.

أين كنت حينها؟ ماذا كنت أفعل، نائما كنت أم مستيقظا، ضاحكا أم باكيا؟ هل كنت أشرب فاشتبك الماء في زوري وأوشكت على الاختناق ـ كما تقول الريفيات ـ دلالة على أن أحدهم (بيجيب في سيرتي)؟ لا أتذكر، فثلاث سنوات فترة طويلة عليَّ أن أتذكر ما الذي كنت أفعله عندما كتب أستاذ جامعة اسمي على ورقة أمامه، وحدد لي دورا في حكايته، وبدأ بتجريبه عليَّ، تفصيله على شخصي المتخيل عنده؛ الكُمَّيْن، الياقة، أماكن تفتيح العراوي وأحجام الأزرار، هل سيضايقني طول الدور؟ هل يضغط على صدري، تحت الإبطين؟ أيجب أن أتدثر بشيء تحته؟ فهذا دور لكل الفصول؛ للشتاء والصيف والخريف والربيع، يجب أن يتحمل، يجب أن لا أصاب بالالتهاب في مشاعري وأفقد قدرتي على تمييز الروائح والطعوم، تمييز رائحة الخائن وطعم الملتاع، الدمعة الساخنة من الباردة، خاصة في البداية، مع قوة الجملة

الأولى، أقامني من خياله شخصا كاملا، وأدار حوارا، مقلدا صوت زوجته الرقيق للغاية، الهامس، الدبق، بشكل لا فكاك للأذن منه، جملة ستقولها لي من ضمن عشرات الجمل التي قالتها:

ـ صوتك متغير.

هل سأصمد؟ لا بالتأكيد، بدون معرفتي لما قاله لي لم يكن لديَّ أمل في الصمود.

* * *

حذرني قائلا إن ذكاء زوجته من النوع الفطري الذي لا يدرك صاحبه أنه يجعله متفوقا على الآخرين، ذكاء يخدع صاحبه نفسه ويقنعه أن الآخرين يأتون في صفه فقط؛ من أجل طيبته وعمل يديْه الصالحتيْن، ذكاء لا يستعمل الخطط ولا يقيم البراهين ولا الحجة الكاملة، ذكاء متكامل ليس من ذلك النوع الذي يُقال باللسان فتكذبه العينان وإيماءات اليد، فالرجل يقيم حجته بالغضب، والأنثى تقيم حجتها بالضعف والرقة، ورقة زوجته ـ كما وصف لي ـ أكثر حدة من شفرة الموسى، تسرق عنقك قبل أن تخطو خطوة في طريق الإنكار، ولكن لا أحد يدرك ذلك وهو يتعامل معها، بل يراها ساحرة في وجودها، يبتسم الناس إذا رأوها قادمة، ويضحكون إذا تكلمت، وتغيب عنهم كما يغيب الضوء عن السائرين في الظلام، وهو، الأستاذ، لم يكتشف ذكاءها على الفور، بدت له امرأة عادية، بوسعك أن تغفر

لها هفواتها الصغيرة؛ كأن تقلي لك السمك في بودرة السحلب، أو تنسى أن تضع الملح في الأرز وهو ينضج، ولا عيب فيها إلا الرغبة في تفتيش جيوبه من وقت لآخر، وليس لها مزاج خاص غير الإصرار على أن تشرب الشاي في أكواب زجاجية والقهوة في أكواب خزفية، قائلة إن عكس هذا البروتوكول يغير الطعم.

لم يذكر لي الأستاذ اسمها، ولكن أمي أخبرتني في خضم الأحداث أنها ابنة القاضي، يعرفها الناس بهذا الاسم، ابنة القاضي الصغيرة؛ لأن لها أختًا أكبر منها، يبدو من سياق اللهجة أن القاضي ليس اسم عائلتها بل صفة لأبيها، وأكدت أمي المعلومة قائلة:

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ كان أبوها يعمل في المحكمة.

ـ قلت متذاكيا:

ـ كان يعمل قاضيا إذن؟

ـ نظرت لي أمي حينئذ وكأنني برهنت على جهلي المطبق بهذه العبارة:

ـ لا، بل يعمل بواب المحكمة.

ـ بواب مبنى المحكمة، أم بواب قاعة المحاكمة؟

ـ حتى لو كان بواب حظيرة دجاج المحكمة، كانت له كبرياء رجل ذي سلطة، رجل معتد بنفسه لدرجة أنه لو سقط أنفه أمامه

ما انحنى لالتقاطه، لم يرزقه الله بأولاد ذكور، ولكن بنتيه فلقتا قمر، ورثن كبرياء أبيهن، الكبرى لا تُطاق، أما الصغرى فتتساهل مع الناس، ولكنها ليست سهلة في الحقيقة، موضوع زواجها كان حديث البلد.

إن كانت الابنة الكبرى لم تستطع أن تروض كبرياءها مثل صياد لا يعرف إلا لغة السهم والبندقية، نجحت الصغرى في ذلك بالممارسة، من مرأى السيارات الفارهة التي تأتي أمام بيتهم من وقت لآخر وتنصرف خائبة، زيجات عدة رفضها الأب (وابنته!)، الأقارب وأهل البلد ومدرسوها حتى رجال عابرون خطفت أعينهم البشرة البيضاء والشعر الأسود المرخي في إيشارب ينم عن كثافة سائلة، أسرت لبهم وألقتهم أمام أب عابس يكره الرجال خاصة أولئك الذين يطلبون يد ابنته ومستعدين للتضحية بأي شيء في المقابل، يزج به الرفض تلو الرفض في معركة لا يعلم أحد من عدوه فيها، وبينما يضيق مدى الاختيار ويتيقن الأهالي أن ابنة القاضي الصغرى لن تتزوج أبدا؛ فالمنصب والثروة وغضب الأقارب ليسوا من ضمن حساباتهم، ثم يتقدم لخطبتها ابن فلاح معيد في الجامعة فيوافقان عليه، كأنهما مَلَّا من تكرار الرفض أو وجدا ـ بدون خطة مسبقة ـ أن العلم هو الشيء الوحيد الذي يستحق الاقتران به. اختيار صحيح باركته السيرة المتداولة بمدى حب الأستاذ لزوجته، وكيف له أن لا يحبها، ولمدة أعوام بعد زواجهما ظلت الأمهات يدعين لبناتهن أن يرزقهن بزوج يحبهن

كما أحب الأستاذ ابنة القاضي، يشتري لها الورد ويصطحبها في سيارة خاصة مرة في الاسبوع ليأكلا في مطعم بالمدينة القريبة.

عندما رأيتها أول مرة في بيتنا لا أنكر أنني لم أستطع أن ألبسها ـ بحكم ما حُكيَ لي عنها ـ الثوب الذي فصله زوجها الأستاذ، كما لم أستطع أن أراها نقية للدرجة التي تجعلها خائفة من كل البشر على ذنب ارتكبته ولم ينكشف بعد، كانت صافية البشرة جدًّا ولأول مرة في حياتي أشعر أن لون البشرة ينعكس على الروح، شعرت أنها امرأة تتجدد بالكلام والحركة، مثل شلال، كل قطرة منه تخلصت من أعبائها وتسقط بالتثاقل في مسار طويل مبهج، دارت في الهواء وامتصت الأكسجين وبردت هدية للأسماك عند المصب، لم تكن نقية في ذاتها وحسب، بل قادرة على إبصار مدى الخلط في نفوس الآخرين من حولها.

خلال حوار طويل في مطبخ أمي، بجدرانه الملطخة بالزيت، والدخان العالق بالسقف، وروائح العالم القديم المعتقة، استطاعت أن تميز من صوتي متى كذبت ومتى صدقت، قالت لي إن زوجها يعرفني، وإنها تزور جميع من عرفهم زوجها في البلد قبل (اختبائه) ـ قالت: اختباءه وليس اختفاءه ـ وللوهلة الأولى ظننت أنها تزورني كما تزور الأرملة قبر زوجها، وكما تتشمم عرق ملابسه التي خلفها، ولكن الانطباع الذي سربته إليَّ أنها لا تظن معه أن زوجها اختفى أو اختطف أو تعرض لحادثة في مكان مجهول

أو حتى سافر، بل موجود بالجوار، وأن اختفاءه مجرد لعبة يمارسها على مستوى كبير، ليس كلعبة الغميضة التي يلعبها الصغار مع الصغار، بل كلعبة الموت التي يمارسها الكبار مع صغارهم، عندما يستلقون ويمثلون أنهم أموات ولن يستيقظوا من موتهم مهما بولغ في زغزغتهم.

سألتني عن دراستي وعن قريبات لي، منتقيات، شتتتني في الوجوه، وذكريات الحب الطفولية، وأمسكت قلبي بين أصابعها، تقلبه وتعرف مزاجه جيدا من تلون وجهي ومخملية صوتي وتبلله، دون أن تخفي قدرتها الفائقة على معرفة الأنساب والحكايات المطوية، مستشهدة بأمي تارة وبآخرين في نطاق جيرتنا، أسألهم، بأبيك وأمك: تهتف بي، هم يعرفون أكثر مني ومنك أن فلانة طُلقت من أجل كوب شاي غير مضبوط، وأن فلانة لم يكتمل زواجها لأن حماها اكتشف غياب طبق في طقم الخزف، تضحك أمي وأضحك أنا وأنسى ـ أو أتناسى ـ كل ما قاله لي الأستاذ عنها، وقبل أن يخفت صدى الضحكات تسألني عن شيء يمكن أن يكون الأستاذ قد تركه معي، كما سألت كل من زارتهم.

ـ شيء خاص به.

على الفور استعدت نفسي، كمن أفاق، وناورت في المساحة المتبقية لي في الحوار.

ـ إذا كان خاصًّا به، فلماذا تعتقدين أنه تركه معي أو مع غيري، ولا يكون قد أخذه معه؟

ـ لديَّ أسبابي، وحوار دار بيننا.

في الليلة التي زارني فيها الأستاذ لم يذكر لي أنه سيخبرها بأنه ترك أشياءه عندي، رغم أنه حرص على أن يهيئني للدور جيدا، فهل دار الحوار الذي تشير إليه بينهما بعد انصرافه من عندي، وبسبب أنه لم يقاوم سحر إلقاء الكلمات الأخيرة قبل اختفائه كما يفعل الأبطال المسرحيون، كأن هذا مقدار زائد عن الحاجة، مقدار قد يفسد خطته، أو يضعها في مسارها الصحيح؟ من يدري؟ كان أفضل لي بالتأكيد أن يظل السر سرًّا، وأن لا تعرف زوجته أن هاتفها معي، وأن لا تطالب به، ولكن هل ما أكده لي الأستاذ عن احتمالية عودته صحيح بالفعل؟ ربما وضع لي ولها سيناريو مختلفًا، كجزءين صغيرين من خطة كبيرة لكي تبدأ اللعبة، وفي اللعبة سأنظر إليها، عدا العينين الواسعتين المفعمتين بالود، لم تكن تختلف عن أي امرأة جميلة أخرى، ولكن عندما تنظر في عينها تتفكك كل مشاكلك الوقتية وتنعقد مشاكل أخرى مختلفة النوع والحجم، محاولا تخمين مكمن السحر الذي دوخ الأستاذ، على الأقل رده إلى عناصره الأولى، مثل محاولاتي الطفولية لرؤية ريش مروحة السقف الدائرة عن طريق دوران عينيَّ في الاتجاه المعاكس، إلا أن هذا النوع من السحر لم يكن

مراوغا، بل كان ثابتا، واثقا من تشابكه وقوة الطلاسم التي قيلت عند كل عقدة، عند كل اشتباك عضو بآخر، بما يظهر ويختفي، كسمكة بلطي هائلة بيضاء تضوي في الشمس وتغري صيادًا جائعًا لم يقع في شباكه منذ شهر كامل إلا الطوب وكسر الزجاج والأحذية القديمة وسمك ينتمي في الحجم لفصيلة الديدان، عند كل مفصل من مفاصلها قيل طلسم وحبس جن ختم على محبسه ختمًا سليمانيًّا، كل مفصل به سبع أمنيات محققة على الفور، ووعد بالقتل إذا تأخرت في فك الختم.

قالت لي فور أن خرجت أمي لتفتح الباب لمن يطرقه:

ـ الآن وقد خرجت (الحاجة) أخبرني بصراحة، هل ترك الأستاذ هاتفي معك؟

وإذ أجبت نافيا على الفور نهضت متهيئة للانصراف كأنها لم تأتِ إلَّا لتسمع إنكاري، قالت: أشكرك، وكانت تنظر للناحية الأخرى، ثم نظرت في عينيَّ مباشرة وقالت:

ـ بالمناسبة، لم أشكرك على تعاونك معي، فأنت كاذب، ولكني أشكرك على أنك أنهيت بحثي، الهاتف بحوزتك، أعرف ذلك جيدا.

سألتها، مدهوشا، مصابا بعدوى الهمس في صوتها: كيف تعرفين؟

ـ صوتك.. صوتك تغير.

قالت ذلك كأنها تعرفني منذ الأزل، ولست مجرد عابر قدر له أن يمر في حياتها وحياة زوجها.

* * *

ـ صوتك متغير.

كانت هذه عبارة زوجته المفضلة، لا يدري أي أذن هذه تلك التي يمكنها التمييز بين تون الصوت عندما يكون القلب منشغلا عن تون آخر وهو خالي البال، مهمومًا كان أو فرحًا، لقد أوشكت زوجته على تخزين عينات من أصواته المختلفة في برطمانات مثل البهارات وأن تضع فوقها بطاقات بأسمائها، حتى عندما يتعمد أن يُفرغ صوته من أحاسيسه، تتشمم الأحاسيس السابقة، كأنها تشم برطمانًا كان مليئًا وفرغ.

يقول لي الأستاذ إنه سمع هذه العبارة كثيرا، من أشخاص عديدين غير زوجته، متناثرين في زوايا مختلفة من حياته، ولكنه لم يعرف حقيقتها إلا منها، كانت تعرف كيف تقولها كما تعرف المرأة الجميلة كيف تتزين، وكما يعرف الرجل القوي المشاكس كيف يدق رأسا، إلا أن المرأة الجميلة تجد سلواها في التزين، والرجل المشاكس يدق الرءوس مستمتعا، أما هي فتبدو عازفة عن الأصوات الزائدة في الكم والكيف. لم تكن تحب الأصوات

العالية، ولا سماع الأغاني، سماعها للأصوات مثل حضور مناسبة، أداء واجب في فرح أو مأتم، وفي الفرح أو المأتم ستسمع الناس يقولون عبارات عديدة، ليست كلها حزنًا وليست كلها فرحًا، وهي قد أدت ما عليها بالحضور، ولكنها ستحتفظ بحق العين الدامعة وقولة: (الله)، ستحتفظ بانفلات الضحكة عندما تشعر بفرح حقيقي خالٍ من الضغينة، يمكن القول إن كل شخص فينا يرى الحياة بشكل مختلف عن الآخرين، بالنسبة إليها تبدو الحياة عبارة عن سماعات بث مضخمة، وحسب زوايا جلوس الحاضرين في حياتك ستكون أصواتهم، وهي موهوبة في إدراك الزاوية الصحيحة التي ستجلس فيها بمجرد دخولها في حياتك، وتعرف كيف يكون الصوت الصحيح كما يعرف الرفاعي ثعابين البيت وأنواعها، والصوت الصحيح يحمل أطنانًا من الحقيقة، ويعجز عن حمل إبرة واحدة من الكذب، وعندما تسقط تلك الإبرة تسمع هي رنينها، فتخبرك: صوتك متغير.

وكعادته في الاستهانة بتفسير مواهبها الاستثنائية يقول لها الأستاذ إن سبب حاستها الفائقة للأصوات هو الهدوء الذي تستمتع به: لو أن دوشة الطلبة تحيط بكِ طوال اليوم كما تحيط بي ما استطعت تمييز صوت الذكر من الأنثى، يقول فترد عليه: ليس لهذه الدرجة، يعترض: بل أكثر، جربي أن تقولي كلمة واحدة فتنبت خلفها ألف كلمة، تندهش: أليست المحاضرات كما أظنها، الأستاذ هو من يتكلم، والطلبة يستمعون إليه؟

يصحح رؤيتها: هذا على أيامك وأيامي، عندما كانت المدرجات كالفصول الدراسية، الآن لا بد أن تشغلي الطلبة باستمرار، بالحوار مثلا، وهذه الهواتف، في أوقات الذروة ـ وهي الأوقات عندما أكون مملًّا ـ أستطيع أن أعد عشرين إشعارًا في عشر دقائق، وعندما أنبه على غلق الهواتف يغرق المدرج في الضوضاء، الطلبة يتحولون إلى هواتف بعضهم البعض، هذا يخبر ذاك بما قرأه والثاني يخبره بتعليقه، يعجبني الأساتذة الذين لا يتفاعلون مع الطلبة، تقترح عليه: فلتفعل مثلهم، يقول: لا أستطيع، ربما في سن أكبر، يبدو أنني لم أنسَ بعد أنني كنت مثلهم، تختطف روح عبارته بسرعة حدأة:

ـ يبدو أن عمرك يسبب لك مشكلة مزمنة.

يقول بينه وبين نفسه مستسلما: من صاحب جملة: (ضرب عصفورين بحجر واحد)؟ النساء يستطعن ضرب دستة عصافير على الأقل.

أخبرني الأستاذ أنه في بداية عمله كمحاضر، وكنوع من التفاعل مع الطلاب، قام بعمل ما يمكن تسميته بدفتر تقييم المحاضرة، يوضع الدفتر في المدرج ويمر عليه الطلبة بعد انصراف الأستاذ، يكتبون ما دار بخواطرهم عن الدرس، بعضهم يشكره، بعضهم يشتمه، القليل منهم يخبره أنه لم يفهم النقطة الفلانية ليعيد شرحها، يترك الدفتر في المدرج لأيام حتى يحمله

فراش المدرج إليه فيطلع عليه ثم يعيده، عندما ينتهي الدفتر يحتفظ به للذكرى، يضعها في مكتبته بالبيت ويعرف أن زوجته تطلع على ما فيها من شطط أحيانا، تكتب بعض الطالبات المهووسات بأستاذهن عبارات تثير غيرتها.

ولكن الأستاذ من النوع الذي لا يبتدر بالكلام، ورغم ذلك يقول لزوجته:

ـ إذا كان هناك ما يسوءُك في سلوكي فأخبريني به.

يحاول ـ مثلها ـ أن يضرب عصفورين بحجر واحد، ولكنه يبدو كالمجرم الذي ارتكب عدة جرائم في آن واحد ولا يعلم أي جريمة هو متلبس بها لتوه، إنه إحساس غريب يحبه القليل جدًّا من الناس، ويدمنون مفعول المادة الكيميائية المندفقة في عروقهم نتيجة الخطر الذي تدفعهم إليه مغامراتهم المتهورة، بلا هدف ولا حاجة، ما يجنيه فقط هو التأرجح على طرف الهاوية دون أن يسقط، في دم العديد من الوادعين: لاعبي سيرك مارين على الحبال ومدربين للأسود، نعم، ليست مهنة ولا رياضة، إنه لا يصعد ليُبيض جدارًا أو يقهر جبلا، لا يحتاج إلى التزام، إنه يهرب من الالتزام، وليست دقائق ولا ساعات هي وقت المغامرة المهولة، بل شهور وسنوات، حياة كاملة، يضحي فيها بكل شيء؛ زواجه وأستاذيته، قد تغفر زوجته أو لا تغفر، ولكن ماذا يقال عن أستاذ جامعة منفلت الأخلاق: كشف الفضيحة الجنسية لأستاذ

جامعي مرموق، شرطة الإنترنت تضبط، جاءتنا شكوى، رسائل قبيحة، وبتتبع..؟ ولكن هل هذه هي الحقيقة، وهل تسير الأمور بتلك الطريقة؟ بوسع أي طالب من كارهيه أن يلفق له صورا من محادثات، أما عن النساء اللواتي يكلمهن فهن من يلقين بأنفسهن على باب صومعته، وما من ذكر يرفض استثارة هرموناته من وقت لآخر لتعزز الوجود الكلي للرجل.

أروقة الجامعات مليئة بحكايات كهذه، عن معيدين وأساتذة وطلبة وموظفين، الشوارع مليئة برجال ونساء يعيشون ويعشن قصص حب وهمية بعد أن خلفوا قصصهم الحقيقية على قارعة الطريق، المهم أن لا تؤثر على حياتهم الحقيقية.

وهو لا يألو جهدا في استكشاف المدى الذي تهور إليه في عين زوجته، متكلما بشكل عام، عن دفتر التقييم والطالبات المراهقات اللواتي يقعن في فخ السرية، يمهد لها الطريق لتتكلم فلا تفعل، فيقول في نفسه: ما لا يُراقب لا يحدث، إنه يتبدد في العدم، تقول له كأنها قرأت أفكاره: ما لا تستطيع أن تصلحه في نفسك بنفسك لن تستطيع قوة على الأرض أن تغيره، يتحدثان من واديين مختلفين، إنه مفهوم المراقبة، يقول لها إن الله وضع على البشر كاميرات مراقبة، دفاتر للذنوب والحسنات، نعم، ولكنه لا يعدل سلوكهم؛ ذلك لأنه قال الكلمة الأخيرة على لسان أنبيائه، ولم يكلم كل فرد بنفسه، ألم تقرئي في ميكانيكا الكم؟

لا، أنت الأستاذ هنا، ولست أنا، هل تعرفين أن الإلكترون يمكن أن يتواجد في مكانين في وقت واحد؟ ولكن المراقبة تجعله يتواجد في المكان المتوقع له، عملية المراقبة نفسها تعطي طاقة للشخص لكي يتوجه الاتجاه الصحيح أو الخطأ، هذا ما تفعله الحكومات، وهذا ما يجعل البعض منها حكومات ناجحة والأخرى دكتاتورية، فبعض المراقبة ينتهك الخصوصية، وبعضها يصنع توجيهًا عامًّا، رادارات الطريق، شرطة الشوارع، الحكومات الذكية تفعل الأمر الوسط، لا تراقب لتعاقب، بل لتوجه.

يقول في النهاية:

ـ أتدرين مِمَ سأخاف إذا ارتكبت ذنبا؟ ليس الله عز وجل ولا الحكومات، بالطبع أخاف من الله على طريقتي أنا، ولكن البشر لا يدعون للمذنبين فرصة ليخافوا من الله على العموم، والمجتمع يعاقبهم على الذنبِ بكل الطرق الممكنة ولكن لا طريقة منها تطهرك.

ـ هذا الإلكترون الذي تتحدث عنه، والذي يتواجد في مكانه المتوقع إذا شعر أنه مراقب، فهل يمكن أن يتواجد في مكان غير متوقع له؟

يقهقه معجبا بفرضيتها:

ـ هذا الإلكترون لا أخلاقي.

ـ بل عنيد، يريد أن يثبت أنه لا يقوم بدوره الصحيح خوفا من المراقبة فيخطئ المسار عمدا.

يتكلم كل واحد عن نمط شخصيته؛ الأستاذ ـ ابن الفلاح ـ سهل التغيير ويستطيع أن يتقيد بالسلوكيات الصحيحة من قبيل الذوق، وهي ـ ابنة القاضي ـ تعلمت أن الأخلاق والتصرفات السليمة جزآن لا يتجزآن من كينونة الشخص، وبينما انشغل الأستاذ بدمار العالم والشكوى من التراب والشظايا اللذيْن يوسخان ساحته الداخلية، مضت هي تلتمس لثوابتها الأدلة والبراهين في عالم متسيب، يتحدث كل واحد منهما عن الذي يحبه في الآخر، ولكنهما في الحقيقة يتكلمان عن شخص واحد، عنه هو ـ الأستاذ ـ عندما يتجادل الزوجان عن نمط شخصية؛ فهما في الغالب يقصدان معالجة أمر معين فيه، أزمة بينهما سببها هو، تتمنى أن يصلح نفسه بنفسه، كما يفعل المؤمنون الصادقون، تلاحظ أنه لا يصلي أحيانا فتتكلم عن فائدة الاقتراب من الله، يأكل بيده اليسرى أحيانا فتنقل الطبق على يمينه متعللة بأنها تمسح بقعة وهمية، إنها تريد منه أن يصبح دون أن تخبره ماذا يكون، وتقول له إن تعديل السلوك الشخصي للفرد عن طريق المحيطين به يفضي إلى التصنع، فيرد عليها أن ثمن الحب أن نتحمل التغيير الإجباري؛ لهذا حبب الله إلينا صحبة الأخيار.

ولكن بعض الأمور لا تتغير ولو حاولنا، وهذا هو الغفران الذي يتطلبه حب حقيقي.

* * *

عندما نحكي نظل حريصين على أن نبين أننا لم نُخدع؛ ربما لم نفطن لعقدة الحكاية على الفور ولكننا نعرف أشخاص الحكاية معرفة وثيقة، نكثر من قول: (كنت) و(كان) بجميع صيغهما؛ لكيلا يظن البعض أننا دخلنا الحكاية من أبوابها الخلفية، عندما كنت أنظر إلى وجهه أسأل نفسي: أهذا هو الأستاذ الذي عرفته قديما وأنا طالب، قبل أن يتزوج؟ ذهبت إليه عدة مرات ليشرح لي بضع مسائل في الفيزياء، ولا زالت عيناي تحتفظان بمشهد بيته القديم المبني بالطوب اللبن، وفي جانب من صالته كان أبوه يجلس دائما على رصة أجولة أرز (أو قمح) يرشف الشاي الساخن في سرعة كأن وراءه مشاغل العالم كله.

عندما تجددت علاقتنا بدا وكأنني تعرفت إلى شخص آخر، شخص لا أستطيع أن أفهمه حتى عبر النقاش الطويل، دائما يظل جزء من الحوار معقودا، يستغرقنا النقاش من المسجد حتى نصل إلى بيتي ونظل واقفيْن بالشارع نتحدث بوهم أننا سننهي نقاشنا على مرمى جملة وتبعاتها، ثم أوصله إلى بيته ونقف مرة أخرى، ولا يدور بخلدنا أن نستريح من الوقوف الطويل، فيستضيفني عنده، كما سبق وأن دعوته ليشرب الشاي عندي فيرفض بأدب

رجل لا يحب الزيارات، ويحبذ الصداقة الخارجية فقط، لا أنكر أنني تساءلت بيني وبين نفسي عن عدم حبه للزيارات، الآن بالذات، بعد أن تزوج، هل يغار على زوجته غيرة شديدة؟ أحيانا ونحن واقفان أسفل بيته ـ الذي أعاد أبوه بناءه بالطوب الأحمر قبل أن يموت ـ نسمع صوتا ـ غلق نافذة أو باب داخلي ـ فيتوتر ويختلس النظر جهة الصوت وينهي النقاش كأنه يضن عليَّ بصوت آخر، يراودني إحساس الطفل المتآمر مع طفل آخر أخفى ألعابه عندما سمع صوت أمه.

لا يعرف الأستاذ متى بدأ بالشك في زوجته، ولكن مع شخص من نوعه أعتقد أنها أعراض جانبية لكثرة التخليط بين الحياة السوية والشائهة، لا بد أن يأتي وقت على الصياد يقرأ فيه آثار صياد آخر يحوم حول عشه، إنه أمر قدري تمليه تلك الصفة المتأصلة في أي رجل، والأستاذ مثله مثل أي رجل، لوقت طويل ظل يصطاد بهدوء بعيدا عن عشه، بعيدا جدًّا، لدرجة أنه لا يعرف اسم جارته والعديد من قريباته، ولو قابلهن في الشارع فلن يتعرف عليهن، يغض بصره ولا يحمر وجهه، وهذه صفة أصيلة في رجل يصطاد بعيدا عن عشه، بأصناف مختلفة من الكلمات الحلوة الدبقة والمشاعر المنتزعة من سياق الحياة، لها كلها طعم واحد كأنها مأخوذة من لحاء الأشجار، لا من لحوم الطرائد وجلودها، ذلك الحب المطلق الذي يشبه العملة الموحدة، تستطيع المرأة أن تنفقه على أي رجل، ويستطيع الرجل أن يضعه

في قلبه فيعمل كماكينة شاملة لا تميز نوع وقودها لتعترض، فضلا عن أن تتعطل.

ولكن الصياد بدأ يقرأ آثار أقدام صياد آخر، لا يشك في ذلك، خاصة إذا كان قد ألف الصيد وصار خبيرا بأساليب العاشقات العابرات في إخفاء أمورهن، لدرجة تمكنه من الرؤية والشك، حتى لو كان الصياد الآخر محترفا، والفريسة متواطئة، ومتى لم تكن الفريسة متواطئة في أمر كهذا؟ إذ تظن نفسها الصياد، ولا تدرك أن من ينزف أخيرا فهو من سيظل ينزف إلى الأبد، وهو من سيُخلع عليه لقب الفريسة، وليس بوسع الفريسة إلا الهرب؛ فهي تؤكل كاملة في النهاية، أما الصيادون فيعيشون بعاهاتهم؛ صياد بلا ساق، بلا ذراع، بلا أذن، بدون حنجرة فقد التهمها نمر صغير، كما يولد الرجال بقلوب مشقوقة من أسفلها، بمجرد أن تتسع للحب، يعبئونها بالنساء بلا تمييز، لا صفة مفضلة عند الرجل، المرأة التي تولد الفولت المناسب باكتظاظ القلب وإن لم يكن فأخرى، سمراء بيضاء حمراء خضراء، نحيفة سمينة، في القلب متسع، والفيصل في السقوط من أسفل القلب هو مدة البقاء والتشبث، عاملان متعاكسان، الرجل المخلص هو رجل زم قلبه المشقوق بيده كما يمسك سروالًا لا حزام له؛ لكيلا تنكشف عورته.

لكن، من يستطيع أن يعبئ هذه المرأة في قلبه، من يستطيع أن يحب هذا الكيان المصحفي، هذا الوجه الذي لو رأيت صورته

ساقطة في عرض الطريق لنحيتها بعد أن تمس بها شفتيك وجبهتك، كما ننحى الخبز وأوراق المصحف مخافة أن تدوسها الأقدام فنأثم؟ صحيح أن التعود هو آفة الروح، وهو يصاب بهذه الآفة سريعا، ولا يشعر بمدى تغلغلها إلا إذا اجتزأ من زوجته صفة وتعامل معها بعين غريب. على سبيل المثال، ذات مرة أتاه اتصال هاتفي على هاتف زميل، فيما بعد تبين له أن بهاتفه عيبًا يجعله يسقط الشبكة لوقت طويل، ولا تعود إلا بإغلاقه وفتحه، الزميل لم يكلف نفسه بسؤال المرأة على الناحية الأخرى: من هي؟ وهذا الاضطراب تسببه زوجته دوما لمن تحادثه، ربما شيء ما في لغة الكلام أو اللهجة، ناوله زميله الهاتف، قائلا : هناك سيدة تريدك، وضع الهاتف على أذنه، مستعدًّا لتلقى الصوت بقلب مغسول كالكوب، وعشرات الاحتمالات تطوف بقلبه، سألها: من معي؟ أجابت: ألم تعرف صوتي؟ قلب صفحات ذاكرته سريعا فلم يجد فيها صوتا مشابها، لا يعرف صاحبة الصوت، ولكنها تعرفه، في لهجتها يقين وحميمية أكثر مما ينبغي لامرأة تعرفه قليلا، أو أخطأت في الاتصال، تنضم هذه اللحظة إلى عشرات اللحظات خارج السياق، اللحظات التي ظن فيها أنه إنسان آخر؛ عندما يضع أحدهم يده على كتفك وأنت تسير في الشارع ويخاطبك باسم آخر، عندما تتفرس امرأة في وجهك وملابسك كأنك زوجها الغائب أو أخوها أو أبوها، هذا اليقين يعني أنه شَكَّك بهويتك، فتصير للحظة الشخص الذي يعرفونه، ألم تعرف

صوتي؟ ـ لا، لو عرفت صوتَك لكان اليوم هو أسعد أيامي ـ لم يقل ذلك بالطبع ولا خطر على باله، ولكن صوته ارتعد قليلا وهو يسألها: من تريدين؟ بلهجة لا ضيق فيها، بل رجاء، كأنه يقول: أخبريني من تريدين وسأكونه على الرحب والسعة، وكأنه يحاول اصطحاب امرأة من حلمه إلى حياته الواقعية، عند الكلمة التالية انجاب ضباب الحلم عن قلبه وتعرف على صوتها.

عندما عاد إلى بيته قالت له مبتسمة: كنت لذيذا، هل تحادث طالباتك دائما بهذا الخجل؟ رد عليها معاتبا: أنتِ قمتِ بتغيير صوتك عمدا، ولكنه مدرك بأنها لم تفعل، الصوت هو الصوت، ولكنه كان يجلس في زاوية مختلفة من حياتها، هذه الحادثة التي لا ينساها كانت بداية خيط للتفكير في إجابة سؤاله الأهم: كيف سقطت امرأة كهذه في علاقة متلفة؟

* * *

تدهشني قدرة البعض على الاستماع إلى حكايات مكررة، لا تملك الحد الأدنى من الإثارة، ولا العناصر الكاملة لتكوين حبكة، فالبعض يجد القدرة على تضييع أنفاسه وحماسه اليومي في أن يحكي أكثر من مرة عن خسارته في البورصة أو مشاكل ميكانيكية وكهربية في سيارته، عن رسوب ابنه في الثانوية العامة، أو مشاكله مع آلام العظام وتخبط الأطباء في تشخيصها، لماذا نحكي؟ لماذا نصر على أن نحكي بالتفاصيل عن تجربة طويلة

يمكن أن تختصرها في جملة واحدة: لقد تم خداعي، تعطلت سيارتي، رسب ابني، أصبت بعرق النسا وشفيت منه، هل يعتقد من يحكي أنه سيضيف إلى خبرات البشر ما يمنعهم من الطمع، ويسهم في تقدم تكنولوجيا السيارات والطب والاقتصاد؟ لا بالطبع، ولكننا نلتمس لأنفسنا العذر عبر تفاصيل الحكاية، ولكن، ماذا عن المستمع؟ فبدون مستمع جيد لن نكون راوين جيدين لمآسينا، والناس يستمعون، هل الاهتمام بالاستماع فرَّع على المرور ـ أو قابلية المرور ـ بتجربة مماثلة؟ والمدهش أن تلك التفاصيل لا تحتوي على أي معلومات يمكنها أن تفيدك في تجربة مماثلة، فالأسهم التي اشتراها في البورصة لن تكون هي ذات الأسهم، والسوق لن تكون هي السوق، وأعطال السيارة وفني الإصلاح مختلفان، كل تجربة مختلفة عن الأخرى، والإنسان نفسه لو مر بتجربة واحدة عشرات المرات فسيقع في أخطاء مختلفة كل مرة، ويبقى السؤال: كيف نجد قلوبنا متحمسة للاستماع رغم معرفتنا أننا لن نستفيد، رغم اقتناعنا بأننا محصنون بالحكمة والذكاء؟ لماذا نستمع ونحن لا نسعى لإدانة الآخرين أو إدانة أنفسنا، وأن الحيوانات والحشرات والطيور لم تخترع نار المخيم ولا الكتب ولا الزيارات الليلية ولا المقاهي، لم نرَ ذئبا يزور ذئبا آخر ليخبره: لقد أخفقت اليوم في اصطياد فريسة، أن حكاية تجارب الحياة والاستماع لها جزء كبير من هبة اللغة، وربما لم تكتشف اللغة ولم توجد أصلا إلا لإنجاز جزء كبير من هذه المهمة البشرية الخالصة.

ولذلك لم يكن الأستاذ في حاجة للاعتذار ليقول لي:

ـ أعرف أن ما سأقوله سابق لأوانه، وأنت تريد أن تعرف الحكاية بترتيبها الطبيعي، لكني أريد أن أبرئ زوجتي من التعمد، وفي الوقت ذاته أبرئ نفسي من الغفلة، أريدك أن ترى الأمور بترتيبها الذي رأيتها به، معاذ الله أن أعيد تعريف الخيانة لهوى في نفسي، ولكن..

عندما عرف الأستاذ اسم الرجل الذي أحبته زوجته بحث في سجل الأسماء التي مرت بحياتها؛ أقاربها، مدرسيها، زملاء دراستها، بداية من السنة الأولى الابتدائية، مجهود استقصائي محترم، ولكنه قليل للإجابة عن السؤال الذي حيره: كيف دخل هذا الرجل إلى حياتها التي لا توجد طريقة للدخول إليها إلا بالخطأ غير المتعمد، السهو غير المقصود، اعتقادها أنه شخص آخر تعرفه حق المعرفة، خُدعت باسمه، ظنته شخصًا آخر، دخلت (مناسبة ـ حياة) بالخطأ؟ وقبل أن تجلس أو تنصرف، قبل أن تدرك أنها أخطأت بالدخول، عاجلها الآخر بصوته من زاوية لم يجلس فيها أحد من قبل، لا، لم يكن صوتا، كانت الكلمات التي سمعتها مكتوبة، على هاتفها، مُرسلة، مفاجئة، وقد ألبستها هي قناع الصوت الذي تحب أن يكون، القناع الأصدق على الإطلاق، وعندما حان الوقت لتسمع الصوت الحقيقي الكاذب، كان الوقت قد فات وتسممت أعصابها وأذناها وقدرتها على التمييز.

يستأنف الأستاذ ـ الزوج في خيبة أمل:

ـ لا أعرف كيف حدث لها ما حدث، فهي قد مسحت الرسائل الأولى، غيرت هاتفها عدة مرات، حاولت إصلاح الهواتف الأولى ولكن الأمر لم يفلح، كانت حريصة على إتلافها بالكامل بمجرد أن يتلف جزئيًا، امرأة حريصة، متعللة بصور أختها وغيرة زوج أختها، وأنا لم أفتح هاتفها ولا مرة، تصور! بدعوى احترام الخصوصية، وعندما اكتشفت خطئي كنت قد تأخرت، وكانت منغمسة بالكامل مثل خنزير فرح في بركة من الطين.

كيف تسقط امرأة كهذه، مخلصة، محبة، تتشمم كل قطعة من ملابسه بعمق قبل أن تضعها في الغسيل، وتتناول كل شيء بقلبها لا بيدها، لا تحسن أن تكتب على الفيسبوك (حالتها) كما يسميها المخضرمون؟ (صباح الخير كلكم)، أو (اللهم صيبا نافعا)، هذا أكثر مما يمكن أن تكتبه عن مشاعرها عندما تستيقظ أو تفرح بالمطر، وتضع صورة فنجان قهوة وقطرات مطر على زجاج نافذة رغم أنها لا تشرب القهوة ويزعجها صوت دقات المطر على الأسطح، هذه المرأة لا يمكن تخمين مزاجها من كلمات تكتبها، كيف تحولت إلى تلك المريعة المتأففة المتذمرة المسحورة، مفتوحة القلب والكيان إلى شاشة أضيق من نافذة في منزل دمية وتركت روحها تنزف من خلالها؟

ـ دعك من تخاريف (الصيد والصيادين) التي سبق وقلتها لك، فأنا لم أفق إلا بعد أن دهمني الحدث، لم أجد أثرا، ولكني شعرت، لقد تغيرت زوجتي، وأنا تغيرت لتغيرها، تأقلمت مع تبدلها، جزءًا جزءًا، كالفارق بين رجل يركب سيارة وينام فيحلم، أو ينام فيحلم بأنه يركب سيارة، الرحلة مستمرة ولكني شعرت بالتفاوتات البسيطة عندما يدهم السائق مطبًّا أو يتسارع، كان الأمر برمته حلمًا.

كم مرة سأل نفسه: ما فائدة تكرار الجنس في الحياة الزوجية؟ لماذا ألقى الله بداخلنا هذا الولع، التحرق لاكتشاف الآخر والرضوخ لاستكشاف الآخر لنا؟ وإذا كان هذا الولع ضروريًّا، فلماذا لم يكن سهلا عبر مصافحة أو قبلة مثلا؟ الأمر مرتبط بإنشاء لغة بين الجسدين، لغة تصير أكثر فصاحة كلما كررنا التحدث بها، في البداية تكون اللغة متعثرة، ولكن هذا البكم تغطيه زيادة في الولع، وعندما يصل الولع لمعدله الطبيعي تكون اللغة قد تكونت، كلماتها الأولى، معجمها الأول الصغير، في لحظة ما تقول الذراع كلمة فترد الساق بكلمة، الذراع الأخرى تلقي كلمة في الحوار فترد الساق المرادفة بكلمة هي الأخرى، هناك حوار كامل يدور.

عندما يبدأ الجسد المحب في التحدث عبر أعضائه، يرد الجسد الخائن بكلمات ليست من لغتهما في شيء، هكذا الأمر، يبدأ الزواج بمضاجعة، وينتهي بمضاجعة.

يدرك الجسد ما لم يدركه العقل ولا القلب، ما يتعاميان عن رؤيته، مهما كان واضحا، العقل غبي، والعين ترى ولا تبصر، تقع في نمطية الرؤية، في لعبة لا أمل فيها لكل أعضائه الذكية أن تدرك، بل للجلد الذي يحس والذراع التي تضم والساق التي تلتف حول الساق الأخرى، ومن ثم يدرك الجسد أن ثمة أمرًا ما خطأ فيتقاصر عن الاستمرار في اللعبة.

* * *

واللعبة أزلية، في البداية تبدو متحفظة، تمسك خشب سفينتها بعيدا عن عين عاصفته المفتعلة، عن لمساته، عن احتضانه القسري من الخلف بينما هي واقفة في المطبخ، معظم الأحيان يأتي الأمر من قبيل الاستكشاف لا الشهوة، شغف الطفل العابث لبث الفوضى في ميكانيزم لعبته، بدلا من تدويرها بالترتيب الطبيعي بتأنٍّ يجعلها تقوم بحركتين في الوقت ذاته، شغف اللمس والعجن واحتواء الكيانات المدهشة في كف اليد ليرى هل ستفيض أم لا، قياس التفاوتات، كيف خلق الرب هذه المصادفات الرائعة في جسدين متشابهين تقريبا، في أي وضع؛ من الخلف والأمام، ركوعًا وسجودًا، إذا سقط أو سار، صعد على درج أو نزل من عليه، وسواء كنت رجلا كامل الأعضاء أم لا، مريضًا أو مصحًّا، قصيرًا أو طويلًا، يوجد ما يجعلك تود الاندفاع ولو كان دمك سليل ثلج القطبين، في اللعبة هناك طرف

واحد، هذا ما يبدو للناظرين، كيف خلق الرب هذا الوهم الجاهز في رأس الرجل؛ لتستحيل مسام الجسد الأنثوي إلى ممرات ودهاليز وطرق تتلمظ لطعنها برمحك والولوج داخلها؟

في البداية يكون هو شغوفا بغض النظر إن كانت هي تود اللعب أم لا، وفي الجزء الثاني عندما يفلح في استدراجها على كنبة أو سرير أطفال أو سجادة عجمية أو على نضد تبدو وكأنها تخلع ملابسها كالمضطرة، أهذا هو التمنع المعتاد؟ في العين نظرة وكأنها تائهة وفي قبضة اليد الصغيرة حين تقبض كلمة نشاز، تفركها بيدها على جسده مثل مرهم أو مرطب لتعوض جفاف الجسد من اللغة، يصطك الجسدان مرة بعد مرة فلا يضيئان ولا يشتعلان، وعندما تأتي أخيرا يكون هو قد اقترب من الذهاب، تستيقظ كأنها تذكرت كيف أتت ولماذا هي هنا، تتحول دفعة واحدة إلى نار كاملة، مصرة على إجباره على استكمال اللعب، أن يهشمها للنهاية، أو يرضى بأن يكون لعبتها، تتوحش عليه ولا ترضى بنصيبها، حتى لو كسرته، حتى لو لم تفلح في إقامة بنيانه، حتى لو لم يكن مشرعا والبحر راكدًا، لا يؤدي مزيد من المحاولات إلا إلى مزيد من الفشل والتعاسة.

في البداية أعتقد أنها السن، لقد تجاوز الأربعين وهي سن التعقل كما يروجون له، سن النبوة، والأنبياء ـ كما هو مأثور في سيرهم ـ يكرهون أنفسهم على المضاجعة، ليسوا مثل البشر،

وعندما نبلغ الأربعين يمسنا من النبوة شيء، لا ننتصب بلمسة، ولا نهرع إلى الأحضان بغواية، لقد أراحه هذا التفسير كثيرا، أكثر مما ينبغي، ملاحظا أن الطرف الآخر لم يمسه هذا الفتور النوراني، بالطبع، عندما يبلغن سن الأربعين يزهرن أكثر، وهي لم تبلغ الأربعين حتى، وعلى شجرتها فواكه لم تقطف، ولعل هذا سبب كافٍ أن النبوة لم تقع في النساء.

ولكنه ليس نبيًّا، بل هو رجل، والرجل يلجأ إلى وصفات الإنترنت، يلجأ إلى نصائح أشخاص عابرين في حياته، خارج نطاق معرفته، زميل سفر، حلاق، صيدلاني، وتفشل كل المحاولات، فما يُنصح بتناوله ودهانه وفعله يقيم ميتا ولا يحضر غائبا، وهو غائب، أداة استحضاره غائبة، العفريت نائم بداخل القمقم لن يخرج حتى لو حك مصباحه شغوف، ينهض إذ ألقيت عليه شعلة نار، ينهض وهو يلعن من أقامه من سباته، الذي استدعاه بتعويذة لم يحسن نطق كلماتها أو أداءها، يتخبط في الجدران، مثل خفاش نهاري، يحسب الجدار هواء والهواء جدارًا، لا ينهكه إلا انقطاع النفس وخبطات الرأس.

ما الشيء الناقص في علاقة مكتملة؟ ما الشيء الزائد فوق علاقة مكتملة؟ هل هي بتراء، أم زائدة، جائعة لدرجة الإنهاك، أم متخمة لدرجة الخمول التام؟ ما الذي تحمله على ظهرها فصارت بهذا الثقل؟ يدفعه البحث عن إجابة إلى تأمل العلاقة من الخارج،

إغلاق باب الدخول والنوافذ والدوران حول البيت للبحث عن (النقب) الذي نفذ منه اللصوص إلى قلبها، عن سُلم خشبي مخبأ بارتفاع النافذة الواطئة يستخدمه العاشق في التسلق كما في قصص العاشقين، يفتح الباب ويدخل، يغلقه في هدوء وسكون، باحثا عن أنفاق سرية، عن آثار خطوات غريبة، انطباع حذاء مختلف، ينظر بعين العدو، الآفة، السارق الخفيف، الذي يختطف نظرة، فابتسامة، وربما قبلة سريعة ـ أو صوت قبلة سريعة ـ ويهرب قبل قدوم الزوج، ثم يستمرئ الأمر، ويأمل في الزيادة، ويتلكأ، يطب الزوج، ولكنه لا يصيح كما في لعبة الاستغماية الشهيرة، نعم، هي لعبة أطفال على كل حال، تنقلب فجأة إلى مأساة كبار، ماذا يسمون الهدف الذي يأمل الجميع في الوصول إليه؟ في لعبة الغميضة يسميه الأطفال (الأم)، إنه مجاز عن البيت، الزوجة، الأنثى.. بالضبط، هل لعبة الغميضة مجاز عن قصة خيانة؟

وكأنه يرى العالم بعين مقتبسة، في أثناء تجوله حول البيت يكتشف أشياء لم يكن قد رآها من قبل أو رآها ولم ينتبه إليها، نشع ماء عند جدار دورة المياه من الخلف، ارتخاء في شيش نافذة مفتوحة، ثلمات في أكثر من موضع بسلم الرخام الخارجي، بؤر صدأ متناثرة في البوابة الحديدية، بقعة زيت كبيرة سوداء بجانب جدار البيت (من أين أتت؟ ربما يقبع البيت فوق بئر بترول)، لو كان أبوه مكانه ما ترك هذه الأشياء التالفة ولهرع إلى إصلاحها على الفور، وكأنها ستتسبب في سقوط البيت، ولكنه غير أبيه،

لو اصطحبه أحد إلى البيت من الخلف لتاه، لم يأتِ إلى هنا إلا بحثا عن قالب طوب سنماري، لو نُزع ولو من قبيل المصادفة أو الدعابة لسقط البنيان بأكمله.

يضاء النور فجأة داخل غرفة الضيوف فيجفل، كأن شخصا آخر غير زوجته هو من أضاءه، كأن يدا غريبة امتدت إلى الزر وضغطته، انتظر أن يسمع صوت ضحكات، صوت رجل آخر، هل هذا البيت بيته؟ نعم، المفتاح يدخل بسلاسة ويفتح، لا يضيء نور المدخل، لديه أسبابه ليتسلل مهتديا بضوء كشاف الهاتف، يرى آثار أصابع على دهان جدران المدخل، أصابع في مناسبات مختلفة تحمل وسخا ودما وحبرا، هناك خدوش أيضًا، هذه الأشياء لا تتلف فجأة، لابد من مقدمات، هل كان نائما مع أهل الكهف واستيقظ الآن، أم أن إحساسه بالفساد المتفشي يتزايد؟ نعم، يتذكر الفأر الذي وجدوه مختبأ في عزل الصوف الزجاجي بفرن المطبخ، قبل أن يراه فعليًّا، حسبه فأرا عابرا، ولكنه فيما بعد، بعد أن حاصره وقتله، ظل يعثر على آثاره، خلف درج الملاعق وجد أكياسًا ممزقة وورقًا، صوفًا زجاجيًّا متناثرًا وعظمًا صغيرًا وخراء أسود داخل عزل الفرن من الخلف، خلف الثلاجة، تحت الحوض، صار يغسل يده كلما مس شيئا؛ لأنه فتح هذا الدرج عشرات المرات ولم يره، أشعل هذا الفرن كذلك.

يقول لنفسه: ولكنه ليس فأرا، إنه رجل، لن يقضم رغيف خبز بائتًا، بل يقضم قلب زوجتك، ما الذي تنتظر رؤيته أيها الأعمى

منذ أن صرت مولعا بالنظر إلى داخل مرحاضك؟ لون بول غريب أم قطعة خراء طافية لا تتسع لمقاييس مؤخرة زوجتك، مقارنات الألوان في قطع الخراء الطافية؟ وهل يمكن أن يأتي هذا اللون نتيجة الطعام الذي تناولته في الصباح والذي أكلت منه بدورها؟ ما الذي تنتظر رؤيته أيها المجنون الجبان؟

تستقبله، لا شيء ناقص، الملح في الطعام والسكر في كوب الشاي، والابتسامة راسية على وجهها، في نقطة واحدة بمنتصف الفم تماما، لا تتحرك، لا تصعد إلى العين وتنتشر على الخدين، وكأنها مربوطة بهلب ثقيل، أو موشكة على الغرق، يريد أن يلقي فكاهة، فتشتبك في حلقه، أن يسرد أحداث يومه فيختنق في أحابيل الكلام، أن يسألها عن أحوالها وكيف قضت يومها فتدق الكلمات على ورقة وجهها البيضاء ولا تترك أثر الحبر. هو الوجه، يكتشف فجأة، أن كل شيء مطبوع على الوجه، ولكن بياض الوجه محير، المتوسطيون لهم وجوه كإشارات المرور، تسوَدُّ عند الحزن، تحمرُّ عند الغضب، تبيض عند اكتشاف أسرارهم، أما وجه زوجته الأبيض فلا ينم عن شيء، إنه ينطفئ فقط، يتحول إلى البياض الشمعي، يخفت الضوء داخل الرخام الناصع وينسحب.

تستقبله بجسد جبسي، إذا دفعته سقط دفعة واحدة وتهشم على البلاط، جسد متشنج يحتاج إلى مدلك قوي وماهر وليس إلى رجل شغوف ومتعب، لم تعد ثمة مناوشات وتحرش، يخشى

أن يلمسها فتكتشف نيته مبكرا وتهرب، ينتظر اللحظة المناسبة للبدء، عندما تخلد للفراش، كأنه استسلام ضمني، موافقة مبدئية، يهرع إلى فراشه وينصب الشباك بصبر، وعندما تأتي إلى جواره يلفح جسدها البارد جسده فيحمد الله على أيام الشتاء التي جعلتها تلجأ إلى دفئه وقدميه المشعتين بالحرارة، لولا تعاقب الصيف والشتاء لفطنت النساء إلى حيل الرجال، ولكنه يحمد الله على الصيف أكثر، رغم كراهيته للحر والعرق، البرد كالح يتيح التترس خلف الملابس، ويحتاج الأمر إلى طلب رسمي ودمغة وطوابع بريد وإمضاء من اثنيْن موظفيْن بأنهما لم يمارسا الجنس منذ.. منذ متى؟ منذ أسبوع كامل، أنت تغالط، نعم، أغالط أيتها المجنونة لأنك تضطرينني للمغالطة، الديك لا يحتاج إلى مغالطة دجاجته إذا مسها المربي ليهرع إليها ويعتليها ليؤكد امتلاكه لها من جديد، لا أحتاج إلى الجنس بقدر احتياجي إلى إعادة ضبط إعداداتك الأنثوية، متى ستتأوهين؟ متى ستصرخين، وتخربشين ظهري؟ هل كل شيء تمام وفي وقته، أم أن أحاسيسك صارت كهاتفك، على الوضع الصامت بحيث تتشوقين بلا صوت، وتتنهدين بدون حرارة نفس؟

الصيف لعوب، هو في ذاته حيلة، رسائل تُرسل من الجسد بلا قصد ويساء فهمها عمدا، وحتى لو توصلت الغاضبة إلى طريقة لحبس كل هذه الرسائل لظل الوجه في الوجه يجب أن يثبت على وضع الدفاع بلا كلل، فالحل البديل هو إعطاء الظهر، وإعطاء

الظهر في السرير ليس كإعطائه في الحياة، فالظهر يتواطأ ويدعو، والوجه هو ظهر المجن والنضد المقلوب بأوراق الكوتشينة المبعثرة ودخان البارود وقتلى على الجانبين، رائحة الفم باردة من أثر المعجون، ذراع بمحاذاة الجسد والأخرى تنتهي بكف أسفل الوجه المتناوم؛ فهي لا تحتاج إلى كتفك، متعللة بعلل كثيرة: متعبة، مغص، صداع، أول الليل مغص ومنتصفه صداع، الكاذب يعرج بالقدم اليمنى بعد أن يخبرك أن الألم في القدم اليسرى، الرسالة الضمنية: لا أريدك، أريد فقط أن أنام، تغمض عينيْها، يتباطأ إيقاع التنفس، ينفجر مع أنفاسها ومن باطنها بركان حرارة حبسته طويلا عنه، قبل أن توغل في المرحلة الأولى للنوم ينتفض الجسد كله، ليس حلما، حدث سريع بدأ وانتهى بلا منطق، سقوط من فوق سلم، انزلاق فوق أرض، حلم بلا حبكة، النوم يكنس بقايا التعب ليستقبل الأحلام الصافية والكوابيس، وإذ ترتعد يحتضنها، يجذبها، ويسألها: ما بك؟ تجيب دون أن تفتح جفنيها: لا شيء، ولكنكِ انتفضتِ، نعم، أعرف، ولكنه لا شيء، ليس من اللياقة أن تجذب جسدها من ذراعيه الآن، يستبقيها كما يستبقي الشغوف عصافير ملونة في قفص الشرفة، يتيح لها النفس ومسافة التقلب كما يقدم المربي الحب والماء، ولكن القفص لا يُفتح، زقزقي إذا أردت ولكن في صدري، احلمي إذا أردت، ولكن إشعارات جسدك الصامتة كلها ستصل إليَّ باهتزاز عنيف، والآن، الآن فقط، بلا دواء ولا دهان، بلا ريح ولا نية في الإبحار،

ينتفض الشراع ويتعبأ بالهواء ويبحر في المسافة الضئيلة بينهما ويمس جسدها اللدن ويضغط عليه ويصنع تجويفا، تجفل، تفتح عينيْها الواسعتيْن في ريبة واتهام، تسأله: ما بك؟ لا تنتظر الإجابة، طبعا، لا تغض بصرك طوال النهار عن مؤخرات الجامعيات، أحلام اليقظة، تأتي إليَّ معبأ، هائجًا، مثارًا، تريد أن تستفرغ شهوتك، لا يُستدرج للعراك، يبتسم ويقول لها: لا توجد مؤخرة جامعية أجمل من مؤخرتك.

استنساخ سيئ، الآن لم يعد لديهما إلا الاقتيات على بقايا حوارات لم تكتمل قديما، أنهاها الشغف وفيضان الشهوة، وقت أن كانت أحلام يقظته مجرد هواجس في ذهنها، ومؤخرتها بالفعل أجمل من أي مؤخرة يمكن أن يراها في يومه الطويل، مؤخرات جوالة، ترحل في ذاكرته البصرية التي تخبو، معفرة مكرمشة الملابس، مبتلة بالعرق، وخالية من الكهرباء التي ترعد قلبه على الفولت المناسب.

استنساخ سيئ كعود كبريت مبتل لا يشتعل، ولو من قبيل الصدفة سيظل الأمر يشبه مضاجعة امرأة مجنونة بالحزن، أطار صوابها الموت، موت أبيها أو أمها أو أخيها، وعندما يبدأ يبدأ بدافع العناد، يقول حاله: هيَّا، فيرد عليه حالها: لنرَ، مثل طفلين عنيدين تعاهدا أن أول من يرمش بعينه، أو يبلع ريقه، أو يضحك إذا هراه الآخر تحت إبطيه زغزغة، تعاهدا على القوة والقسوة،

أول من سيضعف سيكون الخاسر، في الصدمة الأولى يدق رأسه في جسد مصمت، في الثانية يرن الأجوف؛ فيتملكه الأمل، في الثالثة يمر عبر الفراغ، لا يجد جسدا، ويحمد الله عندئذ أنه لم يسقط من حالق.

* * *

تقول لي في حرارة:

ـ لم آتِ لأخذ الأمانة التي تركها الأستاذ معك، بل للدفاع عن نفسي، لتحسين صورتي أمامك.

كانت هذه هي الزيارة الثالثة لها، حتى صارت أمي محترفة في استغلالها، ليست أرملة، ولا مطلقة، لم يخترعوا لفظا لامرأة يختفي زوجها بلا أمل في عودته ولا وسيلة اتصال، مغيبة فارغة البال، ربما تأكل وتشرب في طبق وكوب واحد، لديها فائض خدمة، بمجرد أن تظهر عند الباب تصطحبها أمي إلى المطبخ مباشرة باعتباره غرفة استقبال نسائية، وبدون أن تطلب منها أمي، تشمر يدها في همة وتشطف الحوض بأوانيه المتراكمة، تضع أمي أمامها الجزر فيتحول خلال دقائق إلى مكعبات صغيرة جاهزة للطهي، قرون البسلة والفاصوليا تنفرط بقدرة قادر مثل أعصاب جبان صرخ عليه عفريت، تقشر البطاطس كما تحبها أمي بقشور رقيقة كورقة البفرة، تقول لها أمي: أتعبناك معنا، فترد

عليها: ولا تعب ولا حاجة، أنا أمرن يديَّ على عمل البيت؛ فقد نسيت الشغل منذ ذهاب الأستاذ. تنظر لها أمي في حسد، تنظر خلال الباب إلى أبي الجالس في الصالة وفي يده كوب شاي وكأنها تتمنى أن يهرب الرجال جميعا، وتتزاور النساء لتمرين أيديهن التي تيبست من قلة العمل.

كجائزة، تعد لها أمي كوبًا من الشاي في كوب زجاجي تشرق الشمس من خلاله، وتناديني: تعالَ سلِّم على زوجة الأستاذ، تعاجلها زوجة الأستاذ: لا تزعجيه، لم أكن أعرف أنه موجود، ولأن السهم نفذ وتأكيدا لكلامها تعيد ما انشمر من ملابسها، وتزرر زرًّا غير موجود في طوق جلبابها، في حياة أسرة شرقية لا مجال لحديث سري بين رجل وامرأة جالسين كأنهما في مأتم، هل ستكتب لي على ورقة، وأرد عليها على ورقة أيضًا؟ ولكنها لا تفعل، بل تقول العبارة السابقة بصوت تسمعه أمي، ما الذي تعرفه أمي لتمر عبارة كهذه أمامها دون أن تعلق أو تلتفت؟ أسير على حافة الكلام خلفها، وأجيبها، مؤكدا، كما أكدت عشرات المرات، سرًّا وجهرًا:

- اطمئني، لم ولن أتكلم مع أحد، فأنا مقدر للحالة النفسية للأستاذ قبل أن يغادر.

تنظر لي ومن لسانها تقفز عشرات الأسئلة، ولكنها تخشى من أسئلتها أكثر مما أخشى أنا منها.

- ستأتي لحظة عليك وأنت جالس على القهوة مع زميلك، حتى بعد سنين مع أحفادك، لن تجد ما تحكيه فتحكي ما سمعته، لن يكون هذا خطأك، بل خطئي أنا أنني قصرت في حقها بالشرح.

تبدو امرأة متفهمة للحظات الضعف البشري:

ـ على كُلٍّ، أنا لن أحكي لك كما حكى هو، ولكن هل أخبرك بأنني حطمت له هاتفين في شهر واحد، عن طالباته اللواتي يتصلن به في منتصف الليل ليحكين له قصص حب مفبركة بينهن وبين شخص شبيه به، ولا مواساته للنساء المطلقات على الإنترنت؟ (بدأت أمي تمصمص بشفتيها، فقاطعت زوجة الأستاذ خشية أن أقع بين رحاهما):

ـ لم يخبرني بشيء، مجرد أن الهاتف هاتفك، وأن عليه أشياء بينكما لم تُحل بعد.

تومئ برأسها إلى أمي وكأنها تقول لها: ألم أخبرك؟ ثم قالت بصوت كله أسف:

ـ إذن لقد برأ نفسه واتهمني، لمجرد أنني لم أكن فطنة بما يكفي لأحتفظ بدليل.

ـ لم يتهمك ولم يبرئ نفسه، (أرد كاذبا)، لم يخبرني بالكثير.

ـ حقًّا أخبرتني أمك أنه جاء هنا في منتصف الليل وغادر في الساعة التاسعة صباحا، هذا كلام قليل على تسع ساعات.

ـ لم يكن كله حديثا، كنت نائما وأنتظر الأستاذ حتى أفيق ليشرح لي الموضوع، ويؤكد عليَّ أن لا أعطي الأمانة لأحد غيره.

تنهدت، مدت يدها في حقيبتها وقالت:

أتمنى أن يكون قد شرح لك الموضوع بشكل جيد (أخرجت أوراقًا ملفوفة على بعضها على هيئة أسطوانة ومربوطة برباط مطاطي)؛ لتتمكن من أن تشرح لي ما كان يكتبه في هذه الأوراق قبل أن يغادر، هذه الطلاسم، هل أحرقها، أم أسلمها للجامعة باعتبارها فتحًا علميًّا؟

جذبت الرباط المطاطي وفردتها؛ مستطيلات وأشباه منحرفات ودوائر وأسهمًا، داخل فراغاتها أسئلة، وأسماء، عمليات تفكير منطقية وكأنها مكتوبة بلغة c++، أسهم تغلق عمليات حسابية، وأخرى تفتحها إلى مكان آخر ومربع جديد، ما ناتج طرح شخص من شخص، أو جمعهما؟ هل الطرح فراق والجمع لقاء؟ ماذا يعني إضافة سؤال (بيني) بين شخصين، بين سؤالين؟ لمحت اسمي مكتوبا، واسم زوجة الأستاذ، أشخاصًا أعرفهم، وآخرين لا أعرفهم، ولا أثر لاسم الأستاذ نفسه، هناك معادلات، هذه قصة ما بعد مغادرته، التفاعلات الممكنة بين الأشخاص المتناثرين في زوايا حياته، وجدت أمي وأبي، وجدت الحوار الذي يدور بيننا الآن، في حالة أن أمي جالسة معنا على مائدة الأكل، وفي حالة كانت بعيدة، تغسل على الحوض الكوب الذي شربته زوجة

الأستاذ حتى الثمالة المرة، وجدتها إذ تبقى الزوجة حتى أنتهي من قراءة الورق لأشرحه لها، وفي حالة أنها ستقف وتغادر على وعد مني بميعاد آخر، وجدتني في ورقة أخرى أستسلم وأعطي الهاتف لها، يبتعد اسمي، يختفي ويضمحل، يحل محله اسم آخر في اللعبة، وهكذا، ورق كثير، مكتوب بخط صغير ومرسوم بألوان أقلام عديدة، الأستاذ لم يتوقع، لم يخمن ولم يقرأ المستقبل، بل وضع احتمالات، وفي نهاية اليوم الذي ستزورني فيه زوجته للمرة الثالثة لتوضح لي موقفها وبراءتها، يخرج مربع ينهي العملية برقم صفحة جديد ويوم جديد، لقد حشرني الأستاذ في لعبة لا يكون فيها الشخص الرئيسي رئيسيًّا إلا برغبته، مخيرا وليس مسيرا.

لقد فكر هذا الرجل حتى تلف عقله، احترقت فيوزاته، سقط مفتاح دائرته من الحمل الزائد على أعصابه، وغاب الضوء والحركة في شوارع نفسه إلا من وجوده هو، كان هو المراقب الذي جعل فوتون الضوء يسلك الطريق الذي يرغب فيه، ولكيلا تزدوج شخصيات حكايته إلى شخصين؛ عبد الله بن المبارك الجالس في دكانه، والآخر الذي ذهب للحج مع رفاقه، توقع تحركاتهم وتفاعلاتهم ليصبح هو إله كون قصته، المسموح له بالتواجد في كل الأماكن في وقت واحد، ولعل هذا هو سر غيابه الوحيد، أن لا يراقبه أحد.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال لي:

ـ أعتقد أن الله لم يخلق علاقة متلفة للهواتف أكثر من علاقتنا، بدوري كمحرض واندفاعها هي إلى التحطيم.

ولكنه لا ينسى الهاتف الأول أبدا، كان بالخارج، وعندما عاد بدا وكأنه قاطع لحظة لا تود زوجته نشرها على الملأ، فهي لم تتوقع قدومه، وجدها جالسة على البلاط العاري، لم تختر المكان الذي تجلس عليه كأنها تنكل بنفسها، حسبها متعبة، دائخة، وإذ اقترب مادًّا يده ليرفعها، دفعت يده وزامت مثل كلب جائع يسرق أحدهم طعامه، ما الأمر؟ سألها، لم ترد، لم ترفع رأسها حتى، ولم يدرك هو أن عينيْها مليئتان بالدموع، أو أن الرموش إثر هطول الدموع التصقت وانتفخ الجفن وتقلص الفم تقلصا صيره كالمتشنج، إنه ليس من النوع اللا مبالي، ولكنه لا يعرف التصرف الصحيح في الوقت المناسب؛ لذا فعل أول شيء خطر برأسه، الذهاب للمطبخ وإحضار كوب ماء والتفتيش عن دواء، أي دواء لمرض لا يعرف ما هو.

عندما خطا متجها إلى المطبخ طقطق تحت قدمه نثار من بقايا بلاستيكية؛ بعضها انغرس انغراسا مؤلما في الجلد، أخذ ينظر إليها دون أن يدرك العلاقة بينها وبين الهاتف الذي عاد من منتصف الشارع ليأخذه، ثم سقطت عليه الحقيقة دفعة واحدة، أيقن أن ما داس عليه كان فيما مضى هاتفه قبل أن تقذفه يد غاضبة

إلى الجدار وتدوس عليه عدة مرات بفزع كأنه حشرة سامة، دون أن تأبه بخدوش قدميها. تجمدت أعصابه، تخدرت، سرى في معجم الكلمات لديه تنميل خفيف وهو يسألها: ماذا حدث؟ أخذ يفكر بتثاقل أيضًا، ماذا رأت على هاتفه؛ المحادثات التي تجاوزت حد الود والدعابة بينه وبين طالبات من محاضراته، والتي تجاوزت حد المواساة بينه وبين مطلقة حزينة، أم تلك التي قفزت قفزات واسعة إلى الشطط بينه وبين عانس شغوف بفكرة الحب؟ ربما المحادثات القاسية المذلة له ولكرامته في استجداء حب امرأة خانها زوجها ومضت تتصيد الرجال من ملاءة الحياة الواسعة لتفركهم كالبراغيث، وتنهي صلاحيتهم. هذه المحادثات الأخيرة بالذات تمنى أن لا تكون قد رأتها، عندما أيقنت أنه أدرك أن الهاتف المهشم هاتفه، ربما بعد أن استعادت صوتها من صراخ جواني شق البلعوم وامتد الشق إلى القلب، صدرت منها حشرجة، صوت لم يفقد أنوثته فقط، بل فقد آدميته، ارتد إلى حقيقته الأولى الحيوانية، ملمسه على الأذن كملمس فرو كلب مبلل ذليل، يتصاعد مثل كورال خلف القلب المؤدي، كانت تشتمه، في البداية كأنهما في ساحة مسجد: رخيص، كافر، ثم انتقلا إلى موقف سيارات عامة، كلام وسخ، بذيء، لم يحلم قط أن يمر بخاطرها، أو تسمعه، فضلا عن أن تكون قائلته، عندئذ أدرك أن المشتهى منها صار أبعد من نجمة الصباح.

* * *

عندما تجد المرأة مكمن هاجسها تصير أخف، تشرق من مكان بعيد، وتزهر في الغضب والدموع والذل بأبهى صورها، صارا أكثر من متبتلين، تعد له طعامًا مثاليًّا فيأكله بالغصص، تدب نظراتها في وجهه، ولا يقوى إلا على اختلاس النظر إليها، تطورت بينهما لغة لا تستعمل اللسان ولا العينيْن، تضع الطعام ثم تدق الأطباق المرصوصة بالملعقة والشوكة كأنها تدعو قردا إلى الأكل، يدس الملعقة تلو الملعقة في فمه حتى تكتظ المعدة، لا يجرؤ على أن يدعوها إلى مشاركته الأكل، ولا الإدلاء بطلبات خاصة، كل ما يفكر فيه أمامه، الحد الأدنى من الرغبات، وأكثر من ذلك وقاحة؛ الملح، البهارات، لمونة مشقوقة نصفين، خبز وأرز، ولكن لا يوجد سم، أيتها البعيدة، ضعي لي السم لو كان هذا يريحك، في السم حرارة حتى، هيه، ثوري، الطميني، اشتمي حتى شتائمك البذيئة، يا غاندي الزوجات الكسيرات القلب، يا من تصنعين ملحك بنفسك وتعصرين سكرك بعيدا. تضحك من نكتة عابرة على هاتفها، ترن الضحكة رنينا مؤلما في قلبه الفارغ، تجلس بعيدا متوارية، تنام بعيدا متوارية، وعندما يعود إلى الفراش لا يتعامى عن خط النار المرسوم بينهما بالطول، ترتدي أشد أثوابها خلاعة، وتعقص شعرها عاليا مبللا، كأنها تحتفل بتملكها الجسد بالكامل، نائمة في حديقة من عطورها، تفور خميرة أنوثتها وتتنهد بالحرارة المسكرة ولكنه لا يجرؤ على المس فضلا عن العجن والخبز، محبوس الأنفاس لا يتقلب

وكأنه لص، وينام مختنقا ببخار المني المحتشد في خصيتيه حتى يزأر محبس الأمان من هواجسه الآثمة مع الأخريات، صارت أبعد حتى من أن تطالها أحلامه.

ما المشهد الأكثر إفزاعا من امرأة مفتحة العينين في الظلام، تحسبها نائمة، ولكن أيقظتها نأماتك وزوماتك، وتلمظك، ورائحة الاشتهاء في فمك؟ وإذ تفتح عينك يسقط قلبك من حالق، من نقطة لم يسقط منها من قبل، من المكان الذي لا يمكن لإنسان آخر أن يخمنه أو يصعد إليه خلفك، ولكنها فعلت، سارت خلفك في أحلامك، ورأتك، وقطعت عليك طريق العودة، متلبسا بجريمتك، وبدلا من أن تختنق بالبكاء يا نذل اختنقت بالزفرات الحارة، تدوي صفعة على وجهك، لكمة تطيش على فكك فتصيب عينك، تنفجر الشتائم مثل فرقعة مكتومة لبيضة فاسدة على سطح صلب وتفوح رائحتها النتنة، تضرب زر النور بجانب وسادتك، وتمسك ذراعيها تحسبا لضربات أخرى، وعندما تجد نفسها عاجزة، قد نفد معجم شتائمها، تهطل الدموع فجأة، تترك الذراعين فتسقطان، تحتضن الجسد المحرم فتزوم وتتلوى كأنك تخنقها، تلثم الأصابع، الخدين، الصدر، القدمين، كل ما تطوله شفتاك، تذوق دموعها ومخاطها، وتشم الجلد الحار المتبل بالعطر والملح، تتمنى أن تذوب رائحة في أنفك إلى الأبد، تتملص منك، تتمالك قوتها، تصير فوقها فتلقيك، لا تريد أن تفقد فرصتك بالغفران، تشد عليها بين ضلوعك حتى تصيرا جزءًا واحدًا، تنقلب، وتصبح في تقلبات

المعركة فوق ظهرها، موقعًا مميزًا للخصومة والأشياء الأخرى، ولكن في لحظة العاصفة لا تستمتع بالإبحار، ولا تلقي بسنارتك لتصيد سمكة، في لحظة الترويض لا يتماهى الفارس مع ذبذبات ظهر الفرس، كل شيء في مكانه الصحيح، وكفلاها يضغطان على كليتيك بالضبط وكأنهما إسقاط لذاتهما في الجندرية، ولكن رمحك منكمش كحبة كستناء، والقلب قد استيقظ أخيرا، تثاءب، توضأ، رغم استعجالك له، وأخذ يتلمس طريقه في ظلام المحراب، ليستغفرها، موشكا أن يجعلك تسجد على ظهرها العاري خضوعًا وذلًا، لن أتركك حتى تسامحيني، سامحيني، بكل القيود وكل الشروط، تخفت، تستسلم، يظل ممسكا بها حتى يخفت صوت الأزيز في صدرها، وإذ تهطل الدموع مرة أخرى تغسلهما معًا.

* * *

بعد ذلك بوقت طويل، مطلًا على بداية شهور الجدب، أتاح له الجلوس في المكتبة وقتا للتفكير في أمور عدة، في مشاهد فاتت عليه تفاصيلها، أشباح كانت موجودة في الصور ولم يلاحظها من فرط التعجل، لو لاحظها، لو انتبه إليها، فما الذي كان سيتغير في مصير قصته؟ لا يعرف، يتصور المشهد، مشهد غفلته، بلقطات أشبه بلقطات من أفلام شارلي شابلن الصامتة أو الثنائيْن لوريل وهاردي، عندما يسير البطل في طريق أو يدخل

بناية، يسقط جردل دهان ومصراع نافذة وأصيص زرع، ينغلق باب كان ينبغي أن ينغلق على أصابعه، أو يضع قدمه حيث تكون قشرة موزة ملقاة، أو قطعة روث، ولكن كل هذا لا يصيبه بأدنى أذى؛ إذ إنه ينحني أو يتأخر أو يستدير في ذات اللحظة التي تقع فيها هذه الأشياء فلا تصيبه، والفضل ليس للفطنة، بل للغفلة المطبقة، كان غافلا لدرجة أن الشياطين، كل الشياطين التي استعدت للوسوسة ملت الانتظار، هربت من النافذة ومن شروخ النفس، والآن لم يعد أمامه إلا أن يفتح أبواب (لو) كلها، بابا بعد باب، مكتشفا أنه اختار كل الخيارات الخطأ، لم يكن بالإمكان أسوأ مما كان، وكل شيء سار إلى قدره المحتوم بفضله هو، بفضل غفلته.

أين يذهب ذكاء الإنسان في لحظات القدر؟ هو الأستاذ الذي يستطيع أن يحسب من قطر أنبوبة مياه وبضعة مكعبات من غاز محترق كم الكهرباء المتولدة في توربينة، لم يستطع أن يحسب مسألة بسيطة للغاية، يسير الإنسان العادي المسرع بسرعة أقل من مترين في الثانية، ويقرأ في لغته الأصلية بمعدل يصل إلى ٢٥٠ كلمة في الدقيقة مع استيعاب يصل إلى ٧٠٪، والمسافة التي قطعها ليلة اكتشاف أمره من البيت حتى منتصف الشارع وعودته، وصعوده السلم تتجاوز وقت عشر دقائق باعتبار التلكؤ والتفتيش في الجيوب، أي بمعدل قراءة ٢٥٠٠ كلمة، كل مربع حوار كان يحتوي على ١٠ كلمات على الأقل، ومع الوقت الذي يستغرقه المرء في التقليب بأصابع مرتعشة لا يمكنه قراءة حوار كامل

لنهايته، مع الوقت المستغرق في تهشيم هاتف والدوس عليه والانهيار وإغراق الوجه بالدموع.

عندما يفكر يكتشف اكتشافًا هامًّا للغاية: أن الوقت الذي أتيح لزوجته ليلة اكتشاف أمره؛ لتنهار بعده، لم يزد عن وقت قراءة حوار واحد.

خلال شهور بعد أن تصالحا كانت تناوشه من وقت لآخر وتغمزه وتلمزه بأجزاء من عبارات وكلمات قالها في حواراته السرية مع نسائه المجازيات لتؤكد إلمامها بأجزاء منها كلها، ولا يوجد تفسير لهذا إلا أنها كانت تراقبه منذ البداية ولم تفصح على الفور، يا إلهي....

هل هذا يفسر عزوفها عن مراقبته بعد تحطيم هاتفه، عن عدم الوقوع في الفخاخ التي نصبها ليكتشف إن كانت تفتش في هاتفه في نومه وغيابه أم لا، أنها قد تشبعت، امتلات بالقيح، كان يلزمها فترة لتبرأ، لتندمل، وخلال هذه الفترة لا تريد أن تدخل معركة جديدة، تؤثر السلامة، تكفيها إشارة خافتة، إشعار في وقت مختلف، دخول الهاتف في وضع الصامت أو خروجه منه؟ تقول بابتسامة: رد على معجباتك، يجذب الهاتف، ينصب شاشته أمام عينها، تغمضهما زاهدة ولا تخفت ابتسامتها أبدا.

يسألها: هل سامحتني؟ فتقول: نعم، وفي صوتها غفران يسع أشياء العالم كله إلا هو، نعم وهي تنظر للسقف، للأرض، للجدران،

ليده، أصابعه، أذنيه، إلا للعينيْن، أعلم أنكِ لم تسامحيني، أعلم ذلك جيدا، رغم كلماتك المعطرة التي ترشينها على حديثنا، كطريقة جيدة لإخفاء رائحة جثة علاقتنا الميتة، تخبرني ابتسامتك البيضاء التي صارت أكثر تألقا، تخبرني رائحة عطورك عندما تختلط برائحة جلدك، تثير شهيتي أكثر لأنها تعطيني الانطباع بأنكِ صرت أكثر بُعدا وكأنك ترحلين وأنت بجواري. يخبرني شحوب النظرات وكأنك قررت أن لا ترويها بمشاعرك مرة أخرى، ويخبرني أنا، أنا من يخبرني، عندما يضحك الجميع يفر الفرح مني ويتبقى الحزن، وعندما يحزن الجميع يفر الحزن مني وتتبقى البسمة المريرة، سامحيني لكي يخرج العالم من غرفة الأشباح، لكي تغادر صورته حوض التحميض المقيت.

ثم تفاجئه بالسؤال المعتاد في لحظة غفلة:

ـ ما بك؟

ـ ما بي؟

ـ صوتك متغير.

هل عادت لممارسة هوايتها الأثيرة، تشمم الأصوات، برطمانات المشاعر، بإحساس المرأة الثكلى، بجلستها الكسيرة في المطبخ؛ لأنها فقدت ما يكفي ويزيد، حتى وزنها فقدته، ولم يعد شيء يؤلمها، ثكلى وحكيمة وتمتلك مقاليد عدد لا بأس به من أمور

الفرحة اليومية؛ لهذا يحذر الشقي (هو) لكيلا يحمل طين حذائه إلى شقتها، وسجاجيدها النظيفة، وإذا رأت ما يريبها تبتسم وكأنها تقول في وداعة: نظف قلبك لو سمحت قبل أن تدخل على ممسحة الأحذية، لا لشيء إلا لرغبتها في أن تنقل خبرة العمر للعابثين؛ لكيلا يصابوا بالبرد أو الحب؛ فالحب مثل البرد، يصيب الحلق باحتقان، ومن قبيل النصيحة ليس إلا، وليس من منصة محاسبة أو مقاضاة، تنبهه: صوتك متغير، كأنها تخبره: أنت مصاب بالحب، أليس كذلك؟ ولا تحتاج إلى إجابة، يسعل، يتنحنح، يتمنى لو أصيب ببرد، أو ضربه أحد على حلقه فيتبدل صوته إلى الأبد وتفقد علاماتها على طريقه.

كانت هذه هي الغفلة الثانية التي سقط فيها؛ في الغفلة الأولى كان يبحث لها عن تهمة، وفي الثانية يدفع عن نفسه التهمة، وفي وقت ما بين الغفلتين، بعدهما، أو قبلهما، تسلل اللص، وكأن فعله استنفر رد فعل عندها، أو أنها فعلت ما فعلته من قبيل الانتقام.

* * *

هذه هي الحكاية الطبيعية، النسخة الشعبية تماما المنبعثة من عالم رجولي، حكاية ألف امرأة مع ألف رجل آخر، ولكن الأستاذ لم يكن رجلا، كان زوجًا، والزوج كائن زائد على طبيعة كونه رجلا، ومن الصعب نقل المشاعر في صوت الأستاذ وهو يتحدث عن هذا الأمر، التلكؤ والإسراع، النبرة، الدهشة،

من السهل أن أكتب كان الأستاذ حزينا عندما أخبرني بكذا، لكن أي كلمات قد تنقل نبرة الحزين في صوته، يقول لي: أنا متحير، لكن من يستطيع أن يصور المتاهة التي كان ساقطا فيها؟ لهذا نلجأ للقصص الخيالية، والتشبيهات والمجازات، وحاولت أن أتصور زوجة الأستاذ في قصة خيالية لامرأة، وخلال بحثي لم أجد قصة تليق بما حكاه لي عنها، أهي امرأة خرجت تبحث عن المواساة فيما لا يضر القلب فباعت قلبها دون أن تدري في عقد شيطاني، أم هي امرأة فشلت في أن تشق قلب زوجها فذهبت لتشق قلوب الأزواج الآخرين؟ هل هي منتقمة منكسرة عابثة بليدة المشاعر مرهفة؟ لا صيغة واحدة مناسبة.

لا صيغة مناسبة لامرأة مقتنعة تماما أن ما فعله زوجها في نفسه كان مُثلة أشبه بالمشي عاريًا في الشارع، ترك باب القلب مواربًا للصوص واستهلك حرارة المشاعر في العدم والمجاز، هل توسخ الأم ملابسها النظيفة تنكيلا بابنها الشقي الذي وسخ ملابسه قبلها؟

يسألني الأستاذ في متاهة الحيرة:

ـ ولكن ما دوري في المسألة؟ هل مهدت لها الطريق؟

عزيته: لا، الموضوع يحدث لعشرات الناس في كل العالم يوميًّا، سلسلة من المصادفات المتتالية، يشبه الأمر قصة امرأة ذهبت إلى متجر لشراء سلعة فلم تجدها، أرشدها التاجر إلى متجر

آخر فذهبت إليه ولم تجد السلعة التي تبحث عنها، وهكذا من متجر إلى آخر، يرشدها هذا إلى ذاك، وفي أثناء بحثها تجد أشياء تعرف أنها ليست بحاجة إليها، ولكنها تشتريها، من قبيل الخجل، أو الاحتياط، حتى ناءت يداها بحمل الأشياء، وعندما عثرت على سلعتها أخيرا وجدت أن لا المال الذي تبقى معها كافٍ لشرائه ولا الذراعان بهما متسع لحمله، أما عن دوره هو في القصة ـ أخبرت الأستاذ ـ فلم يكن التاجر ولا السلعة ولا الطريق، كان دوره غامضًا وضئيلًا، وهامشيًّا، محفزًا ضئيلًا ليجعلها تنفق من عملة قلبها بلا هوادة.

ـ عملة القلب (قال مبتسما) تعبير جيد.

ـ اخترعته للتو.

حكيت له من وحي الكلمة حكاية رجل بدوي حكاها لي أحدهم، أعطاه رجل أدى له خدمة عملة مالية كبيرة، وقال له إنها تشتري الأشياء، ولأنه كان بدويًّا يفهم في المقايضة فقط، عرف أن عنزتيْن صغيرتيْن يمكن استبدالهما بخروف كبير، وحق رعي لمواشيه في أرض لمدة عام يساوي جوالين من الفحم، لا يفهم أن المال الورقي له نفس القدرة، فكرة الفكة، أن الورقة المالية الكبيرة يمكن لها أن تكون عددًا لا بأس به من العملات الصغيرة، نزل إلى المدنية والتحضر، أراد شراء خيمة، بكم الخيمة؟ بخمسين جنيهًا، إذن ليست بمائة؟ ليست معي إلا ورقة بمائة،

البائع المتعجل لم ينتبه، ظن أنه يداعبه، كأن البدوي يفاصله بطريقة مبتكرة تحمل السخرية، يقول له: لا، ليست بمائة، فينصرف، يذهب لمكان آخر، أريد جوالين بلاستيكيّين أحفظ بهما الماء، بكم ثلاثة جوالات؟ يجيبه البائع: بخمسة وعشرين جنيهًا، وهل توجد عملة اسمها خمسة وعشرون جنيهًا؟ يجيبه البائع: لا، ولكننا نبيعها بهذا السعر؛ فينصرف البدوي حائرا، هل سيشتري البدوي ما جاء لأجله؟ ربما يقابل رجلًا يجعله يفهم أول مبدأ من مبادئ الاقتصاد، وربما لا. كانت زوجة الأستاذ تراقبه، كما يمكن للبدوي أن يراقب الناس إذا وقف خارج الدكان ورأى الناس يعطون مالا ويأخذون الباقي. تراقبه، تكتشف اكتشافا بديعا، أن عملة القلب يمكن لها أن تنفرط إلى عملات كثيرة؛ بعضها للزوج، بعضها للأولاد، ليأخذ كل ذي حق حقه، يتبقى القليل جدًّا متبقيًا، تعطيه لغريب، وعندما تلتفت تجد أنها لم يعد لديها مال يكفي لأجرة العودة، أجرة التاكس أو الباص، عليها أن تعود مشيا أو تمكث مع الغريب إلى الأبد.

تلهم الفكرة الأستاذ، التشبيه الذي شبهت به حكايتهما، هو وزوجته، يحاول بكل المعطيات أن يجعل هذا التشبيه حلًّا لحالته المعقدة؛ فهو رجل علمي، ولكن هيهات، التشبيه لا يتفق مع الحالة، ربما تشبيه آخر، وآخر، ولو مكثنا طوال الليل نضرب في دروب المجازات ما وصلنا إلى ثقل الحقيقة، بساطتها، ولكن الأستاذ يقول إن الأمر كان أشبه بشريكين في رحلة بعيدة، بعيدة

بحيث لن يصلاها أبدا، سيموتان في الطريق، ولكن الرحلة لازمة، ليست هذه هي مشكلتهما؛ انعدام الأمل في الوصول، لا، المشكلة القائمة أن أحدهما حريص، والآخر مسرف، وعليهما أن يتقاسما النفقة، وعندما وجد الحريص أن الآخر ينفق بلا حساب قرر هو الآخر أن ينفق أيضًا، طالما أن المال سينفد بأي حال، وأن الرحلة لن تنتهي، الحريص كان ينتهز فرصة دخول المسرف إلى أماكن الشراء ويذهب هو الآخر ليشتري، أشياء كثيرة لم يكن يريدها، ودون أن يدري الحريص اشترى من ضمن الأشياء التي اشتراها مدية حادة، سلاحًا ناريًّا، دون أي نية في القتل، هنا تنقلب القصة تماما، هنا يتبدل مصير الشريكين.

* * *

رغم كل شيء تظل نهايات الحكايات مشوشة، غير مكتملة؛ ربما لمعادلة مجهولة أو دخيلة، في هذه القصص جميعها، قصة المرأة المهووسة بالشراء، وقصة الشريكين وقصة البدوي، فالواقع أكثر تعقيدا من أن نصفه بحكاية خيالية واحدة؛ لأن كل قصة تطرح معضلتها النهائية حتى لو تشابهت الحبكة، المرأة التي لم تشترِ في النهاية ما تريده، والمدية المختبئة في حقيبة المسافر، والبدوي الذي سيعود بالمال إن لم يجد من يشرح له الأمر، وعن طريق طرح المعضلة؛ ستعرف أنت ـ أيها القارئ الحصيف ـ أن هناك وقتًا يجب أن يتصرف فيه الإنسان تصرفا صحيحا، وقتًا

مناسبًا، وقتًا يجب فيه على المرأة أن تتوقف عن الشراء الأهوج، وأن يصارح شريك السفر شريكه بأنه إن لم يكف عن إهدار نفقة الرحلة فسيفارقه ويسير وحده، ووقتًا ليطلب فيه البدوي مساعدة الآخرين في شرح ما اختلط عليه؛ ليكون الدرس المستفاد أن الخطأ، كل الخطأ، أن ننتظر ونصبر طويلا حتى تمر اللحظة الصحيحة فتنقلب أقدارنا.

ولكن، هل السبب في ارتكاب زوجة الأستاذ لحماقات الحكاية هو أنها انتظرت طويلا؟ حتى تجاوزت نقطة اللا عودة، واشتمت من صدرها رائحة غريبة؛ رائحة لحم قلب يحترق أو ينضج، فزحفت مرة أو مرتين إلى ساقيْ زوجها الجالس، العائد من العمل لتوه، ووضعت خدها على ركبته طويلا؛ لتستمع إلى وجيب قلبه وهو يدق عاليا، وتنظر إلى وجهه الذي يتلون رويدا رويدا، وتتركه هكذا، متهما، تلعب بذهنه الخواطر السوداء، مجرم سمع صفارة الشرطة فأخذ يبحث داخل ذهنه سريعا عن ظل جريمة ارتكبها؟ وصمتت طويلا إلى أن قالت بصوت ضعيف، أضعف من أن تسمعه أذن شخص عادي، عبارات على شاكلة: أشعر أنني لست بخير، لماذا تأخرت بالخارج؟ أحتاجك إلى جواري، فيربت الأستاذ على ظهر زوجته، يدس يده في شعرها، ليكتشف أنها نحفت، وأنها كلما بكت فستنحف أكثر وأكثر، ورغم عظامها الجافة الناتئة كالشوك أسفل يده يساوره إحساس كأنه يربت على إسفنجة مختنقة بالدموع، وأنها تمتلئ

وتقاوم، ولا يعرف ما الذي تقاومه، الشك فيه، اليقين فيه، لم يدر بخاطره قط أنها تقاوم الشك واليقين فيها هي، في نفسها، وأن اللص تسلل ووجد البيت فارغا، وأعد لنفسه كوبا من الشاي، وأضاء النور واتخذ مقعدا إلى خزنة الأسرار، وصار يجرب الآن طرقا متعددة لفتح الخزنة التي يخبئ فيها صاحب البيت الغائب كل كنوزه، يجرب مرتين وثلاثًا وألفًا، لديه كل الليل، والنهار التالي أيضًا، إنها تقاوم بالفعل، وتفكر في ألف اتجاه، كيف تطرد اللص وهي من فتحت له الباب، وأعدت له الشاي، وسهرت إلى جواره تضع له حلولا وتشابكات ليفتح قلبها بهدف اللعب؟ لا، إن اللعب بريء من هذه المناورات المعقدة للنفس البشرية، ولكن أليس الحب لعبة، رضا بالوجود في البداية؟ وجود شخص غريب والسماح له بتلاوة عشرات الكلمات السحرية على باب الكهف المليء بالكنوز، الكلمات المستهلكة في البداية والتي تصلح مع كل القلوب التي لم تعتد الدهشة، ثم الكلمات الأخرى التي لا تقال إلا للقلوب التي اشتبكت تعقيداتها ولم يعد صاحب القلب نفسه يعرف كيف ومتى ـ وفي أي مكان بالقلب ـ نشأت العقدة الرئيسية، ثم الكلمات التي لا تقال للقلوب أساسا وقد أيقنا ـ الصياد والفريسة ـ أن القلب سر لعين، وأن الكلمات لا تفتح إلا القلوب البكر، أما القلوب التي فُتحت بالطريقة الخطأ، وجُربت مرة بعد مرة، فلن تفتح، وأن ما ينشأ بينهما ليس علاقة بين قلبين كما تصورا، ليس طريقا في اتجاهين كما أرادا.

في المرة الأخيرة التي زحفت إلى ركبتيه لم تشتكِ حالها لزوجها الأصم الغائب، بل طرحت حلًا جذريًّا: ستأتي معي غدا إلى القاهرة.

أتخيل الأستاذ عندما يستدعي هذه اللحظة من ذاكرته، يرسم خطًّا من دائرة اسمي المكتوب أمامه، ويكتب اسما آخر، وسؤالَ: (أين كنا؟).

* * *

هذه المرة لا تصطحب أمي الزائر إلى المطبخ ليساعدها في تقشير البسلة، بل تقوده مباشرة إلى غرفتي بناء على طلبه. رجل لم تره من قبل، تجلسه على مقعد، يتأكد منها للمرة الثالثة أنني موجود بالبيت، تقول له أمي: في دورة المياه، يطلب منها قبل أن تنصرف: اتركي الباب مفتوحا، كأنه يخشى أن يفتنه سريري وأباجورة مكتبي.

لو كان يعلم أنه سينصرف خالي الوفاض من عندي ما تورع قط عن استغلال الوقت الذي منحته له الحاجة الطبيعية للإنسان في تفتيش أشيائي وسرقة الهاتف.

قال بعد أن رد التحية:

ـ أشك أنك تعرفني، ولا أطمع في أن تعرفني، أنت فتى منشغل، تقبع هنا في غرفتك، تذاكر، وتدفع الأمة إلى الأمام بدلا من أن نظل عالة على الأمم الأخرى.

ستظل هذه العبارة من أسوأ العبارات الاستهلالية التي بدأ بها إنسان حديثه معي، أشبه بأن يرفسك حصان أو ينقر ديك رأسك ليظهر لك وده؛ تمهيدا ليلقي إليَّ بعبارته التالية التي ستحتل المركز الثاني في السوء:

ـ ولكن لا بد أنك تخرج من وقت لآخر، تجالس أصدقاء لك، وأنا لا أذهب إلى الأماكن التي قد تذهب إليها؛ لهذا لا تعرفني، وإن أردت أن تعرفني فاسأل عني الكبار؛ أباك وعمك، وخالك، لقد التقيت بخالك عدة مرات؛ مرة منها كان متورطا في حل مشكلة....، سيارتي، مسافرا إلى... وقد رأيت من واجبي أن أتوقف وأساعده، وليذهب المشوار إلى...، وهكذا استطعنا معًا...، وأصر أصحاب المشكلة أن....، طعاما عظيما...، كل بيت خرج منه...، طعام كثير... صوانٍ كثيرة.

كنت قد وضعت إصبعي داخل أذني اليمنى، أعاني من دخول بضع قطرات ماء فيها، أهزها وأنا أميل برأسي فتتطاير الكلمات بعيدا عن سمعي كما يتطاير الماء عن فروة كلب، وأنظر إلى الرجل، حتى لو لم يخبرني باسمه، لكنت سأعرف، لقد حكى لي الأستاذ عنه، ووضع لي أمارات في شخصيته لا يخطئها المستمع؛ فهو يدشن نفسه في بداية أي حوار كقطعة قديمة من الوجود الأبوي، كجزء من التراث الديني الشعبي، ويتداعى

في الحوار إلى حكايات فرعية كثيرة، وإن لم توقفه وتُعِدْه إلى الحوار الأصلي فسينسى:

ـ ادخل في الموضوع.

ـ أنت فتى منشغل، ولا نريد أن نشغلك أكثر، هناك أمر جميل أحبه في الأجيال الجديدة، أتعرف ما هو؟ إنهم يستطيعون تدبر أمر أنفسهم بأنفسهم، ولكن تأتي لحظات لا بد أن يعترفوا أنهم في حاجة إلينا.

أتأمله بعين الأستاذ، محاولا اعتصار صفة أخرى مميزة له، إنه يتحدث بصيغة الجمع، ليس من قبيل التفخيم والغرور، بل بإحساس أنه متحدث رسمي عن جماعة كبيرة من الناس يحملون صفة تواجد مشتركة؛ (سيطرة، عمر، عقيدة).

ـ ولكي لا أطيل عليك الحوار، أنا لم آتِ هنا لآخذ منك الشيء الذي تركه معك الأستاذ، بل سأحكي لك ما أعرفه عن هذا الموضوع، ومتأكد بعد أن تسمع ما جئت لأقوله لك أنك لن تود الاحتفاظ به، وستعطيه لي لتتخلص منه بالطريقة المناسبة.

لديه طريقة مختلفة في نطق الكلمات، مع التمهيد النفسي، جميل ما يقوله، أن يتم إقناعك عبر حكاية وليس من خلال تهديد، أو وصاية، ولكنه قال كلمات كثيرة في أثناء هذا التمهيد من قبيل الوعيد الخفي: أنا أتيتك لأمنع عنك شرًّا عظيمًا، غضبًا هائلًا، متاهات لا تستطيع الدخول فيها والخروج بأمان.

ـ يعلم الله أنني أتيت أصلا وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، هل ستصدقني لو قلت لك إنني لو عاد الزمن وخيرت بين أن أكلف بهذه المهمة أو لا، لكنت سأهرب من بيتي لأسبوعين أقضيهما في أي مكان؛ في الحقول، في المسجد، عند أقارب لنا في الشرقية.

وأنا أيضًا، لو عاد بي الزمن لهربت قبل أن يزورني الأستاذ، على مقهى، عند صديق، ولكننا لا نختار الحكايات التي نتورط فيها.

ـ من يدري؟ نحن لا نختار أقدارنا.

ـ صدقت.

نستغرق في لحظة إيمانية تأملية أود أن تنتهي بانصرافه، أقطعها بسؤاله مدعيا الجهل:

ـ ولكن ما علاقتك بالأستاذ؛ قريب الزوجة؟ قريب الأستاذ؟ واسطة خير؟

ـ لا هذا ولا ذاك، أنا مجرد صديق لابن عمها، هل تعرف ابن عمها؟

نعم أعرفه، أعرف أنه تقدم لخطبتها قبل خطبتها للأستاذ، وأنه ادعى في أكثر من مجلس قبل أن تتزوج أنه يحبها، ولكن عمه يرفض تزويجه إياها.

ـ أعرف أنه رجل محترم.

ـ ربنا يبارك له في صحته وفي أولاده وزوجته.

بين الثلاثة (صحته وزوجته وأولاده) قاسم مشترك، عندما يبارك له الله في صحته يبحث عن شعرة في طبق شوربة، يبدأ الأمر بتذمر وينتهي بالضرب، تسحب الزوجة المضروبة أولادها إلى بيت أبيها، يقول الجيران إنه يفعل ذلك لتوفير النفقة على نفسه، في بداية العام الدراسي وقبل شهر رمضان وفي الأعياد. فالأولاد في بيت جدهم من أمهم يأكلون ويشربون ويشترون الكتب الدراسية على نفقة جدهم.

ـ رجل كريم، لا تمر مناسبة في البلد؛ فرح أو مأتم، ذبح أضحية، إلا ويقف ويساعد من اللحظة الأولى، لا يتردد في مساعدة الغير أبدا فضلا عن أقربائه.

خنقتني وصلة المدح الكاذب هذه رغم رغبتي في مماطلته:

ـ ما علينا، ادخل في الموضوع.

ـ قبل شهور جاءني (ابن عم زوجة الأستاذ) طالبا مني خدمة، مؤكدا لي أنه جاء بناء على طلب منها، ولمعرفتي بالمشايخ، قال لي إن بنت عمه المتزوجة (ملبوسة).

ـ ملبوسة؟

ـ عليها جن.

ـ وكيف عرف؟

ـ هي من أخبرته.

لابد أنه رأى النظرة في عينيَّ؛ لأنه توقف عن الكلام فجأة، اعتدل، تنهد، وقال:

ـ شوف يا أستاذ، أنا لم آتِ هنا لأناقش معك الموضوع من بدايته، دعنا نقف على أرض ثابتة، أنت تؤمن بوجود الجن، تمام، مذكور في القرآن، موجود في كل الثقافات، ولو تكلمنا بلغة العلم فهي كائنات ميتافيزيقية لها قوى خارقة ترى الناس من حيث لا يرونها وتستطيع أن تلحق بها الأذى، لها أجسام غير مادية، وتتشكل بالشكل الذي تريده.

ـ حتى لو اتفقنا على صحة هذه المقدمة العظيمة فسيبقى سؤال ملح: لماذا تؤذيها؟ لماذا تؤذي زوجة الأستاذ؟

ـ ببساطة؛ لأنها آذتها، ألقت ماء ساخنًا في حوض الماء أو دورة المياه دون أن تذكر اسم الله، هناك جن يؤذي لمجرد الأذية وأن يكون قد رأى منها ما لا ينبغي رؤيته، نامت مستلقية بملابس خفيفة ونحن نعرف أنها امرأة جميلة، هناك شواهد ثابتة تؤكد إصابتها؛ تكز على أسنانها وهي نائمة، تزوم وتنتفض، تستيقظ وعلى جسدها علامات غريبة وكدمات، وفي يقظتها وأحلامها ترى ثعابين سوداء وصفراء وكلابًا، تبكي بلا سبب، تتصرف بشكل غريب، أنت تعرف طبعا أن الجن مخلوق من نار، والنار متكونة من موجات حرارية وكهرومغناطيسية

وضوئية، الطاقة الموجية لها القدرة على التأثير على مخ الإنسان، أي نعم، لا تندهش، أنا مذاكر كويس، وأستطيع أن أخوض نقاشا طويلا حول هذا الأمر، لكني أتكلم فقط لأنني أريد أن أريك عينة، ربما في وقت آخر نخوض هذا النقاش، عندما نصير أصحابًا، أنا أجلس دائما في المسجد الفلاني بعد صلاة العصر، وأنا أجلس على المقاهي أيضًا، هناك مقهى لا يقدم إلا المشروبات الحلال.

إنه يتداعى للمرة العاشرة، أستطيع أن أرده إلى الطريق ولكني أكسب الوقت، سأطلب من أمي أن تعد له الشاي وأستغل خروجي من هنا لأبحث عن يد مطرحة قديمة لأحمي بها نفسي، من يدري؟ حذرني الأستاذ من خيانة هذا الرجل.

أستأذنه، أخرج، أعود حاملا صينية الشاي، ينظر إلى ما في يدي الأخرى مندهشا، أكذب عليه، أخبره أن فأرا يجول في غرفتي منذ يومين، وأنني رأيته يطل بشاربيه منذ قليل، يصمت قليلا، ينظر في عينيَّ وقد أصابه الوجوم، تململ، يخبرني بأنه فعلا يشعر بأنفاس غريبة في الغرفة منذ دخلها، يسألني: هل أنت معتاد على الفئران هنا، على وجودها؟ لا، إنه فأر عابر، هل ترى أشياء أخرى؛ حشرات، ديدانًا؟ نومك منتظم؟ أفطن إلى أنه يعد حمولة ضخمة ليفرغها عليَّ، فأتوقف عن إجابته، قناعات كل واحد منا تصبغ رؤيته.

يسألني بإصرار: هل الأمانة التي تركها معي الأستاذ موجودة هنا، معنا في هذه الغرفة؟ أجيبه: لا، ولكن لا تقلق، إنها في مكان آمن، هل وضعته في بنك، صندوق أمانات؟ أبتسم ولا أجيبه، يقول لي وكله ثقة: أنا أعرف أن الأمانة هنا في هذه الغرفة.

ـ كيف عرفت؟

ـ تخمين، قلب المؤمن دليله.

كلمة أخرى عن قلب المؤمن، وسأضع يد المطرحة في نصف رأسه.

ـ أخبرني، ماذا فعلتما للزوجة الملبوسة؟

ـ ماذا فعلنا؟ سافرنا بها، أخذناها إلى ذوي الخبرة.

ـ وكان هذا لقاءك الأول بالأستاذ، خلال هذا السفر؟

ـ لا، لم تكن أول مرة، صدق أو لا تصدق، فقد أتى إلى بيتي قبل السفر بعدة أيام، ودار بيننا حوار طويل، شكا لي من زوجته، من شرودها، من انقلاب حالها وتغير أخلاقها، وأكد لي العلامات.

ـ العلامات؟

ـ نعم، التي أخبرتك عنها، رؤية الثعابين والكلاب، الكز على الأسنان، لا يمكنني (قال بورع) أن أصطحب الناس في طريق طويل كهذا دون تأكيد.

أخبرني الأستاذ عن ذلك، فالجالس معي الآن نموذج لنمط نشاز ينشأ ويستمر ويعتاد الناس عليه دون أدنى استغراب أو استنكار، رجل يقبض مبلغا من المال مقابل اصطحاب الناس إلى (شيخ)، قد تكون هذه مهنته الوحيدة التي يتعيش منها، وقد تكون مهنة مرادفة لمهنة لم تعد تلقى رواجا كثيرا، والأستاذ عندما سأل عنه بعد أن أخبرته زوجته باسمه أخبروه أنه يعمل نجار أثاث، ولكنه لم يدق مسمارًا في حياته إلا لإصلاح مقعد أو صناعة طبلية، والمقاعد صارت تصنع كالأكواب وأطباق الطعام، تُصب في قوالب، عندما تنكسر تُرمى، ولم يعد أحد يطلب طبالي مصنوعة من الخشب إلا الممسوسون بالنوستالجيا، أما هو فلم يكن على استعداد ليطور من مهنته وأدائه بعد أن قضى فيها عمرا طويلا، ولا أحد يعلم كيف أتته الفكرة، ولا مستلزماتها، هل ذهب إلى الشيخ مثلا وأدى يمين ولاء ما؟ بالطبع لا، فعديد من الذين ذهبوا معه يقولون إنه لا يعرف عن الشيخ إلا الطريق إليه، بالمواصلات العامة والخاصة، والمطاعم القريبة، الرخيص منها والغالي، وعندما يرسو بزبائنه عند الشيخ ويحجز لهم دورا في بحر من الوافدين من محافظات شتى ينتهي دوره الهام، ليس تماما؛ فالشيخ هو المعادل الديني للمعالج النفسي، والذي سيقبض بدوره مبلغا آخر أكبر من المال مقابل قراءات وأشربة ودهانات، تشترط زيارات أخرى.

أسحب اليد الخشبية، مبرأة من أثر الإمساك، قد تكون زلقة قليلا عند توجيه ضربة حاسمة ولكن لا بأس بها عند التهديد، وأنا أعلم أنني لن أتجاوز منطقة التهديد.

- إذن، كنتم ثلاثة رجال؛ أنت وابن العم والزوج، سافرتم معها، كانت الخطة أن تسافروا لهذا الشيخ الشهير في القاهرة لإخراج الجن من عليها، بالقرآن، بالضرب، أيًّا كانت الطريقة، كيف تطور الأمر ووصل إلى أنكم ضربتم الأستاذ ضربا شديدا في محطة مصر، وتركتموه بعد أن أغشي عليه ورجعتم؟

* * *

مرارا تخيلت المشهد بعين غريب بعد أول مرة حكاه لي الأستاذ؛ عينيْن من أعين مئات المسافرين بالقطار إلى جهات مختلفة، منتظرين قطاراتهم على الرصيف، بعضهم جالس وأكثرهم واقفون، والقليل مستلقٍ كيفما اتفق، يحملون حقائبهم وأولادهم، يحملون الهم والانشغال وذبابًا كثيرًا وعبء التنفس، أصوات الناس ترن رنينا مزعجا، عشرات الألسن تتكلم في وقت واحد، وفجأة تنطلق صرخة ويسقط رجل بين الناس.

بعض الناس يقتربون، بعضهم يبتعدون، السواد الأعظم ثابتون في أماكنهم يختلسون النظر، يسري الخبر بينهم، تؤكده الشواهد، أنه ليس رجلًا تعثر أو انزلق فسقط على الرصيف، ليس رجلًا مصروعًا كما يحدث من حين لآخر بين المسافرين، مريضًا

أو متعبًا، يسقط فيهرع الناس إلى بخاخ أو زجاجة ماء أو دواء في حقيبته، المختلف أن من سقط رجل سليم تماما وما أطاحت به إلى الأرض لكمة أصابت وجهه وارتج لها رأسه، والضاربان له اثنان؛ من وجَّه له اللكمة الأولى والآخر ظل مترددا قليلا ينظر إلى الضارب الأول وإلى نقطة ما في الزحام، يكرر النظر حتى استقر رأيه أن لا يفوت الحفلة، فأخذ يضرب (الساقط) بقدمه، في البطن، في المؤخرة، ويصرخ كأنما يحفز نفسه: يا كافر، يا وسخ، أما الآخر فلم يكن يحتاج إلى تحفيز، كان يضرب في صمت، وبقبضته، تعيبه قبضته اليمنى فيلجأ لليسرى حتى تسترد عافيتها، يتحلق الناس حولهم، يمسكون من استطاعوا السيطرة عليه: الضارب الثاني، يديرون ذراعيه خلف ظهره ويبعدونه ولكنهم لا يضعون شيئا على فمه الذي لم يتوقف عن الشتم، وفي الفواصل التي لا يسعفه فيها لسانه، يأخذ في البصق على وجه المضروب حتى جف ريقه، وبُح صوته.

بعد أن انتهى ابن العم من إفراغ طاقته في الجسد المرميِّ على رصيف القطار، وخشية من مجيء الشرطة لو جاءت مد قبضته المدماة في سترة الأستاذ واستل محفظته، وهاتفه، جرده تماما من المال ومن كل ما يشير إلى شخصيته؛ ربما آملا أن تكون الضربات قد أصابته بارتجاج عنيف في رأسه فيفقد الذاكرة كما نشاهد في الأفلام ويضيع إلى الأبد، كانت طاقة الغضب بداخله أقوى من أن يعترض طريقه أحد، سائرا باتجاه بوابة الخروج، تبعه

البعض وكأنهم يأملون في معرفة الحكاية، هل الرجل المرميُّ على الرصيف مغشيًّا عليه لص، نشال؟ هل سيتجه إلى الشرطة ليبلغ عن الحادثة؟ وإن كان سيفعل، فلماذا أخذ المال والهاتف من سترة الرجل المضروب؟ لماذا لم يتركهما كدليل؟

يسير الرجلان، أحدهما يتبع الآخر، ومن خلفهما امرأة تبكي، لا يشوه البكاء بياض بشرتها ولا يعكر اتساق ملامحها، هيًّا، يصيح الضارب الأول يستحثهما على مجاراته في السير، وخارج المحطة يختفون في زحام الناس.

يتحامل الأستاذ على نفسه، يجلس، وخلال دقائق طويلة يمر الناس من حوله ولا يتوقف أحد، يغيب من شهدوا واقعة الضرب، يستقلون قطاراتهم، يحملون أولادهم وهمومهم وحقائبهم، ويحط الذباب على وجوه أناس آخرين لم يتوقف واحد فيهم ليسأل نفسه: لماذا هذا الرجل جالس على الأرض بهذا الشكل؟ ما به؟ ماذا حدث له؟ رجل أو اثنان توقفا للحظة، سألاه، رأى أقدامهما، حذاء جلد ملمعًا، والآخر حذاء رياضيًّا من القماش، لم يسمعهما، كثير من الضربات أصابت أذنيه، وعندما رفع رأسه ليعرف ماذا يقولان بالإشارة، هربا على الفور من مشهد وجهه المكدوم.

أما هو، الأستاذ، فقد كان تائها في سؤال آخر: ماذا حدث؟ حتى أشد العقول ذكاء لا تستطيع أن تخمن ماذا حدث، لقد قطعوا مسافة السفر كلها بلا منغصات، ابن العم ومعرفة الشيخ

والأستاذ وزوجته، لا مقدمات تبرر العدوانية التي حدثت فجأة، بل إن أحدهما عزم على الأستاذ بسيجارة والآخر تحدث معه عن مسألة فقهية هامة لم يعد يتذكرها، وعندما نزلوا من القطار، وبحكم معرفته بالقاهرة، نزل الأستاذ أولا، ومن بعده معرفة الشيخ، تأخرت الزوجة وابن عمها قليلا. عندما التفت الأستاذ وجدها تميل على أذنه في الزحام، قال الأستاذ في نفسه: ربما تريد أن تخبره بشيء عام ولكن الضجيج يمنعها، ومع قليل من الغيرة ناداهما أنْ هيَّا. نظرا إليه، ظلت الزوجة مكانها، سار ابن العم ناحيته بخطوات سريعة، لا شرح لا مقدمات، تراجع الرجل وقذف قبضته اليمنى إلى الخلف كأنه يمسك مقلاعًا، وصك بها وجه الأستاذ المذهول.

ما الذي حدث لهم؟ كانوا مسافرين وقبل قليل ضربوه، والآن تركوه، جردوه وتركوه، إلى أين ذهبوا؟ تملكه خاطر مضحك، أتكون هذه خطوة تمهيدية لطقوس طرد الجن من جسد زوجته؟ نعم، وما أدراه؟ فهو لم يفهم منذ البداية كيف سيقومون بالأمر، منذ أن زحفت الزوجة إلى ساقيه وطلبت منه أن يسافر معها إلى القاهرة، وحتى بعد أن شرحت له، لم يفهم، بعد أن قابل الرجل الذي شرح له هو الآخر، النار وموجات الكهرومغناطيسية الناتجة من النار وتأثيرها على العقول، لم يفهم، رغم شهادته في العلوم المتقدمة، لماذا عقل زوجتي أنا بالذات؟ لأنها تنام مكشوفة؟ فعلا! وربما تكون قد ألقت ماء ساخنًا فأثارت غضب الجن،

والآن، هل ترى حالها؟ هل يرضيك حالي؟ هيَّا إلى القاهرة، ولكن ماذا سنفعل هناك؟ هل يتضمن الأمر طقوس تعرية أو اختلاء؟ لا، لن أفارق زوجتي لحظة، هل تفهمون؟ لك ما تريد، ستدفع أجرة الطريق وثمن الطعام، وأجرة الشيخ؟ لا يأخذ أجرة، ستتبرع في صندوق مغلق، تضع فيه ما يسمح به ضميرك، وهكذا، في الطريق نامت زوجته على كتفه مستسلمة لارتجاجات القطار الرتيبة، خلال الطريق لم يتوقف ابن العم عن إشعال السجائر؛ فهو رجل غاضب، يقوم بكل شيء بضمير حي، عندما يذهب إلى مأتم يصافح أقارب الميت، يهز أيديهم وكأنه غاضب من إهمالهم، غاضب من حزنهم وعدم تماسكهم، غاضب من إعداد المأتم ومكان وضع السرادق ونصبة القهوة وبعض فناجين القهوة التي تخرج سكر زيادة، والمعزين الذين لا يفهمون الحزن على أصوله والتي تقتضي أن لايطلبوا القهوة إلا سادة، غاضب حتى من المعزين الذين يشربونها سادة، من كلامهم حول أمور الدنيا، وعندما يذهب إلى زفاف يبدو غاضبًا أيضًا، أقرب للأسف، وفرحًا بمرارة من عدم اكتمال الأمر، ولديه قائمة ملاحظات؛ نوع الطعام الذي قُدم، والطباخ الذي أعد الطعام، وأصحاب الفرح الذين تركوا كل شيء يجري على عواهنه، حتى معد المشروبات الذي يغرف من السكر غرفا كأنه ليس مالا حلالا، وأسفه يطول العريس أيضًا لأنه لم يسمع كلامه وتزوج في هذه الأيام الباردة، والعروسة لأنها لم تنظر في عينه وهو يحييها وتبتسم؛ فهو في مقام أخيها

الكبير، وجميع العائلة يسندون إليه أمورًا عدة؛ الوقوف في بناء، الذهاب لإتمام ورق رسمي، المبيت مع مريض في مستشفى، ليس لمهارته، بل خوفا من غضبه، ولأن الجميع عندما يرونه (مقاول البناء وموظفي الحكومة وممرضات المستشفى) يقومون بالشيء على الوجه الأكمل خوفا من ثورته. وهناك سر في تدخينه المفرط، علبة السجائر التي لا تكاد تصمد معه إلى منتصف النهار، هو غاضب على مستوى السجائر أيضًا، لا يكاد ينهي سيجارة، ففي كل لحظة هناك خبر أو كلمة أو مشهد لا يعجبه، في الشارع أو التلفاز أو في هاتفه، أو خبر مستدعى من الذاكرة لم يغضب له في وقته غضبا مناسبا، وحتى لو فرغ العالم وخوت جيوب ذاكرته من أسباب الغضب، يجد أن السيجارة في حد ذاتها سبب كافٍ، طعمها سيئ، أو ورق البفرة رطب، أو الفلتر يشد معه في الأنفاس كأنه ينازعه (ابن الكلب، كأنه من اشترى السيجارة وليس أنا)، هناك سبب لينهي حياة السيجارة بحذائه أو بقبضته، أو رميا لها على أقرب جدار، ومن الجيد أن تنوء السجائر بحمل كل هذا الغضب عن الآخرين؛ فهم ممتنون لها لدرجة أنهم بمجرد أن يروْه قادما من بعيد يستلون سجائرهم ويشهرونها في وجهه، خذ، يغرقونه بها حتى ينصرفوا أو ينصرف هو، إلا زوجته، فهي بالطبع لا تستطيع أن تعزم عليه بسيجارة وإلا شج رأسها، ولو كانت تستطيع أن تفعل متجاوزة مسألة شج الرأس فلن يغنيها من الأمر شيء، فلها وحدها حالة خاصة من الغضب، غضب بلا سبب،

أصل الغضب ربما، البداية، وهم يقولون إنه قبل أن يتزوج لم يكن غاضبا بالكلية، كان غاضبًا قليلا، وإنه ذهب ليطلب يد ابنة عمه، تلك التي تنام على كتف رجل آخر أمامه الآن في القطار، ورفضته، رفضا يشتد مع الإلحاح، ليس لعيب فيه، بل كما يروي الناس بسبب التشاؤم، ففي اليوم الذي تقدم فيه لخطبتها انفجرت شعلة الفرن وشب حريق بسيط في المطبخ، لم يتأذَّ أحد إلا ابن العم في كرامته، والذي انتظر وقتا كافيا ليكرر الطلب مرة أخرى ليسقط الماء المغلي على يد حماته المستقبلية وهي تعد الشاي ويهرعوا إلى الصيدلية القريبة ليضع كيلوجرامًا من مراهم الحريق على يدها وساعدها، ونصف شريط مسكنًا في فمها لتخلد إلى النوم، وقبل أن تنام، يقول الساخرون إنها أوصت زوجها وأبناءها لو قبض الله روحها إليه أن لا يتزوج ابن أخيه ابنتها، والثالثة ثابتة كما يقول العوام، الذين يقولون أيضًا إنه كان على ابن العم أن يركل الشائعات أو تكسر الشائعات قدمه بثباتها، ولكن ابن العم كان أذكى من أن ينساق خلف المهيجين، قائلا إن كل شيء قسمة ونصيب، وإن ابنة عمه رفضته لأسباب جمالية وسلوكية بحتة؛ وهو بذلك يغمز زوجها الحالي في طريقة كلامه وشاربه الحليق واضعا المزيد من الرجولة في كفته هو، منتقصًا في الوقت ذاته من عمه وزوجة عمه التي باعت بنتها للغريب بنظرة حلوة وكلمتين طريتين ودستة جاتوه، وأن التشاؤم هو إشاعة يروجها الهازلون على المقاهي والمصاطب، والدليل أنه زار بيت عمه عشرات

المرات بعدها ولم يحدث شيء، وأنه ذهب لخطبة زوجته الحالية؛ أم أولاده، ولم تشب النار في عود كبريت إلا لغرضه، لكن في الجلسات الخاصة، بينه وبين الأصدقاء الذين يمتلكون الحد الأدنى من قابلية إغضابه، يعترف بالأمر، بأن التشاؤم هو ما جعل عمه وابنة عمه وزوجة عمه يرفضونه، وأن الخوف من الفضيحة هو ما جعله يحجم عن المحاولة في المرة الثالثة، فمن يدري ما الذي قد تفعله المصادفة، القدر، مع عائلة مهووسة بالاستخفاف بالنار خاصة عند وجود ضيوف مهمين؟ لقد تمنى وصلى أن تنشب النار ـ ليس في فرن أو على ذراع ـ بل في البيت بأكمله في اليوم الذي تقدم فيه الأستاذ لخطبة ابنة عمه، ليصبح الأمر واضحا للجميع، أن التشاؤم الحقيقي يجب أن يكون منهم لا منه، وها هو بعد سنوات، بعد أن ذهب كُلٌّ إلى حاله، تلجأ إليه هو، لا أحد غيره، ليذهب معهما إلى القاهرة لصرف العفريت الذي ناءت بحمله طويلا، وربما كان هو السبب الذي وسوس لها برفضه، وأشعل الحريق وسكب الماء المغلي، عفريت قديم، جالس الآن معهم، رابض في جسد الأنثى التي اشتهاها كثيرا وحلم بها، امرأة حياته، يشعل له سجائره، ساخرا منه، يجد أثر ذلك في سلاسة الإشعال بقداحته الجديدة التي فوتت تروسها من فرط عصبيته، لا تصمد قداحة في حوزته طويلا، ولا فأس، ولا امرأة، ولولا هروب زوجته منه من وقت لآخر إلى بيت أهلها لهلكت منذ زمن، لا يعلم السر في غضبه. جميل أن يكون لدينا، سبب لنلعن

الحياة من أجله، خرافة في حياتنا، لماذا لم تعطنا الحياة ما أردناه كأطفال، ما أردناه بشدة ولا زلنا نريده؟ يجلس أمامه الآن، نائما، كأنه بعث من الماضي، امرأة لم يستهلك منها زوجها قيد أنملة، امرأة (مجمدة) خضراء كورقة دولار لم يفك صاحبها من جسدها قرشا في سبيل متعته، أو أنفق كثيرا ولم تنفذ، بل زادت، كأن هذه المرأة أمهرت عقدا مع الفتنة بالربا، كلما نظرت لها العيون وفتنت بها صارت أجمل، بياض الجسد يصير أشد، العينان مشمستان والجفون وارفة الظلال، والجسد يفور مثل قناة ماء لم يشق فيها فلاح مصرفا لري أرضه، فلا عجب أنه مسكون، عميق، لا تكاد تثبت عليه عين إلا وتغمزها فتنة هائلة رابضة في القاع يسيل لها لعاب الصياد المتمرس.

أما الرجل الآخر الذي لم يصمت منذ تحرك القطار من محطته البعيدة دون أن يدرك أحد إلى من يوجه الحديث، فيدير الكلمات بينه وبين نفسه، مترصدا الأوجه الثلاثة لرفاق سفره، حتى المرأة النائمة التي لن يعدم فرصة أن تفتح عينها ذات مرة لتجده ينظر إليها، هي ولا أحد غيرها، موجها إليها كلامه، فتسأله: ماذا تقول؟ فينطق بكلمات لم تسمعها جيدا، وينظر إلى ابن عمها كأنه يستشهد به فيما قاله، ويقهقه، فيبتسم ابن عمها بفم جففه العبوس، كأنه يتألم، ويقذف ما تبقى من سيجارته من النافذة المفتوحة، مجربا غضبا لم يجربه من قبل، دعس سيجارة تحت قضبان حديدية.

ما الذي حدث فجأة بعد أن وصل القطار إلى محطته؟ يسأل الأستاذ نفسه وهو جالس على الأرض، يطأ الناس ظله المتألم، أي شيطان وسوس لهم بأسباب اعتدائهم عليه؟ يتحامل ويقف، إلى أين ذهبوا بزوجته، وكيف وقفت ساكنة لم ترد عنه الاعتداء، لم تجزع، أو تصرخ؟ ما الذي قالوه لها عنه، لتتبعهم ساكنة وتتركه ملقى على رصيف القطار، بلا مال ولا هوية، يسير بتثاقل؟ هل سيعود، أم ينتظرهم؟ وكيف سيعود لو أراد؟ من أين سيأتي بأجرة القطار؟ عندما كان بالجامعة رأى أناسًا كثيرين يتسولون أجرة عودتهم وكان يمر بهم مسرعا، لم يتصور قط أنه في يوم من الأيام سيكون مثلهم، تمتد يد في الزحام وتمسك بيده فيجفل، إلا أنه يطمئن لنعومتها فيهدأ، وبدون أن ينظر يعرف أنها يد زوجته، بأجزاء من جسدها يراها خلال الكدمات التي طمست جزءًا من زوايا إبصاره يتأكد ظنه، لقد عادت، تدس في يده المشرعة علبة مناديل ورقية وزجاجة ماء وتجره مثل طفل إلى شباك التذاكر، تبتاع تذكرتين، هل سنعود؟ يسألها، لا تجيبه إلا بعد أن يجلسا على مقعديْهما في القطار، نعم سنعود، وابن عمك، والرجل الآخر، هل سنتركهما؟ ترد هامسة: لقد ضربناك، يهتف كأنه تذكر: لماذا ضربني؟ تأخذ منه المناديل بعنف وتصب من زجاجة الماء عليها وتشرع في مسح الدم من على وجهه، يتأوه تأوهات متفرقة، فتأمره غاضبة أن يصمت، أن يكون رجلا لمرة في حياته، بدلا من ذلك يوحوح متسائلا: لماذا ضربني؟

يرى الدموع في عينها فتتأكد ظنونه، يصيح متألما بصوت خشن: ما الذي قلتِهِ لهما عني؟

* * *

تأتي الحقيقة إلى من لم يطلبها، بعد أن تطير طويلا، مرتفعة عن الأيدي، تبحث عن الطعام عند من لا يأبه بها، تقتات على بقايا أفكارهم، غبائهم، ولا مبالاتهم، وتعود لتطير، وعندما تسقط من شدة الجوع يكون الذي انتظرها طويلا قد غادر أو مات.

هذا ما حدث معي ومع الأستاذ، وعندما أفكر أن السؤال الذي فكر فيه الأستاذ طويلا ولم يعثر على إجابة شافية له، غير بضعه تخمينات، قد أتتني إجابته، أنا، على طبق من فضة، في حوار لا أصدق أنني أمتلك الصبر لأخوضه مع رجل كهذا، ولكن الله يعطينا العمر اللازم لنتنفس وفوقه وقت إضافي لمجادلة الأغبياء، واكتشاف كنوز لا نملك الوقت لإنفاقها، لم يكن لديَّ أمل في أن يخبرني زائري العجيب بما قالته زوجة الأستاذ لابن عمها وتسببت في هذا الغضب الهائل، فقد سبق وسأله الأستاذ، بعد أشهر من الحادثة، توسل إليه عدة مرات ولكن الرجل بخل عليه بالإجابة.

وأقول: ربما وجد زائري أنه محاصر بمعرفتي التامة بما حدث يوم القطار فقرر أن يضحي بجزء من الحقيقة التي لا أعلمها لينجو من حصاري، كما يخلط الساحر ألف كذبة بكلمة صادقة

وحيدة، لقد خدعني بتأسفه الشديد لدرجة أنني ظننت أن الأستاذ قد اختلط عليه الأمر، وأن ابن عم الزوجة ضربه بحقد رجلين وأكثر، وكما قال الزائر:

ـ لم أضرب الأستاذ، ولم أسرقه، ربما أكون قد شتمته، بصقت عليه؛ وهذا لأن ما سمعته من ابن عم زوجته لم يكن بسيطا على رجل مثلي، يعرف الدين ويعظم الله في قلبه.

ـ طيب طيب، أصدقك، ولكن ذكرني، لماذا ذهبتم إلى القاهرة؟

ـ كما سبق وأخبرتك؛ لإخراج الجن من زوجة الأستاذ.

ـ وماذا قالت لكم زوجة الأستاذ في المحطة، وجعلكما تقرران العودة؟

ـ دفع عن نفسه التهمة.

ـ قالت لابن عمها ولم تقل لي.

ـ سيان، ماذا قالت لابن عمها وجعلكما تتركان الأستاذ بعد ضربه، مرميًّا على الرصيف، بلا مال ولا بطاقة شخصية؟

ـ يا أستاذ، زوجته كانت معنا، تركته أيضًا، هذا يعطيك إشارة.

ـ إشارة على ماذا؟

ـ على ارتكابه الأمر الفادح.

ـ وما هو؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال متضايقا:

ـ لكل شخص نزواته، ونحن تكتمنا على الأمر، لم نفضح الأستاذ ولا زوجته:

ـ ماذا قالت لكم؟

ـ الله ستير.

ـ الله يعرف أنك كاذب، كيف صدقتم كلام امرأة ملبوسة؟

ارتج الكلام في حلقه، نظر إليَّ مندهشا كأنه يكتشف هذه الحقيقة لأول مرة، ولكنه دافع عن نفسه:

ـ لم تكن ملبوسة.

ـ كيف عرفت؟

ـ لأنها أخبرت ابن عمها بحقيقة الأمر، بنزوات الأستاذ معها في الفراش.

ـ ربما يكون الجن هو من تكلم على لسانها بأي كلام قبيح ليجعلكم تعودون.

ـ لا يمكن، الحالة هي من أخبرت عن نفسها، وبكلام في منتهى الاتزان، أنها مريضة نفسية، والسبب في مرضها النفسي هو الأستاذ، ما يفعله معها ولا يرضي الله ولا الرسول من فوق سبع سماوات.

لا جدوى من محاصرته في هذه الزاوية إذن، تنهدت، نفخت تقريبا في وجهه:

ـ حسنا، إلى أين ذهبتم بعد ضرب الأستاذ؟

ـ عدنا بوسيلة مواصلات أسرع من القطار.

ـ ولماذا لم تعودوا بالقطار؟

ـ ابن عمها هو من اتخذ القرار، وليس أنا.

ـ وعدتم في نفس اليوم؟

ـ بالطبع، أعدنا المرأة إلى بيتها، وعدنا إلى منازلنا والحمد لله.

ـ هل أنت مدرك أنك تكذب للمرة الثانية؟

تضايق، لماذا يتضايق الكاذبون من اتهامهم بالكذب بينما يجب أن يشعروا بالخجل؟

ـ ما الذي تريد أن أقوله يا أستاذ؟

ـ الحقيقة، أين ذهبتم بزوجة الأستاذ؟

ـ إنها مريضة نفسية كما أخبرتك، لا يمكن أن نذهب بها إلا لطبيب نفسي، كما لا يمكن أن تتوقع تصرفاتها، كانت تتبعنا، تمشي خلفنا وفجأة اختفت، عدنا بسرعة إلى محطة القطار فلم نجدها ولم نجد الأستاذ.

ـ لو كنت مكاني، فهل ستصدق نفسك؟

ـ وما الذي يمنع؟ بالطبع سأصدق.

ـ كيف وقد كذبت مرتين في جلسة واحدة، ولو أتيحت لها الفرصة فستكذب مرة ثالثة ورابعة؟

تفزز من مقعده بنية ضعيفة في المغادرة؛ ربما أملا في أن يهددني.

ـ لو سمحت يا ابني، أنا أكبر منك سنًّا، وأنت لا تعرفني جيدا، اسأل أباك وعمك، وكل ما أقوله في حق الأستاذ مثبوت بالأدلة وبشهادة ابن عمها.

ـ أي أدلة؟ أدلة رجل ضرب رجلًا آخر وسرقه ويأتي الآن ليكذب عنه؟

صرخ وهو يلتفت حوله كأنه يبحث عمن يشهد معه، ثم مد يده وكأنه قرر أنه سيقيم الحق وحده:

ـ أنا لا أكذب، ولو كنت كاذبا طوال الوقت، ففي هذه النقطة بالذات لا أستطيع أن أكذب، هاتِ التلفون، الآن، وافتحه فستجد الدليل، يخفيه الأستاذ كما يخفي سوأته؛ لهذا أخفى التلفون معك، أنت الشاب ذو المبادئ والذي يفضل أن يُذبح على أن يسلم أمانة تركها معه رجل زنيم (كنت أبتسم الآن بسخرية، أنظر إلى وجهه بسخرية لأدفعه إلى مزيد من الغضب، متلاعبا بأعصابه، ترتعد يده وهو يمدها إليَّ طالبا أن أعطيه التلفون)، هاته، سأريك الدليل وبعد أن نراه سنتوضأ، وقد نغتسل، ومن يعلم قد ننطق الشهادة

من جديد، الأستاذ الذي تحميه كان يأتي زوجته من الخلف، لا يأخذ متعته إلا في المكان الذي حرمه الله، من مؤخرتها، ليس في مكان الحرث، بل في المكان الخرب، هذه هي الحقيقة التي أستحي أن أقول إنها ناصعة؛ لأنها سوداء أسود من الزفت.

وجمت، تجمدت، مرعب ما يمكن لامرأة فعله من أجل الإبقاء على حب لا يزال جنينا، إحساس لقيط لا يوجد ما يدعمه في هذه الحياة، مرعب هذا الذكاء الذي يختلق كذبة كهذه في لحظات، أو ساعات حتى، من يدري؟ متى بدأت في التفكير؟ في القطار، بعد أن أيقنت أنهم ذاهبون إلى القاهرة لإخراج الجن المزعوم، ضاربة عصفورين بحجر، إيجاد مبرر لتقلباتها العاطفية الشديدة والتي وجدت لها متنفسًا جانبيًّا في خيانة زوجها لفترة من الوقت، وحجة في حال انكشاف أمرها فيما بعد بتلاعب الجن بمشاعرها وتصرفاتها، لكنها طوال الطريق كانت واثقة مما تريد، واثقة أكثر من الرجال الثلاثة، وتفكر بأسرع مما يمكنهم تخيله، تدوس كل الاحتمالات باحثة عن ألغام مخبأة، وعندما اهتدت إلى لغم بعيد، احتمال ضئيل أن يكتشف الشيخ طارد العفاريت شيئًا من حقيقتها، قررت أن تتلاعب بهم، ومن يدري؟ ربما كانت هذه هي خطتها منذ البداية، في أوقاتها الصحيحة وأماكنها الصحيحة.

* * *

بعد ذهاب الأستاذ قُدمت سبعة بلاغات للشرطة للبحث عنه، في بلدان مختلفة بمحافظتين مختلفتين، كلها من زوجته، لم تدخر جهدا ولا مالا، بل أنفقت بسخاء لتنشر صورته في الجرائد تحت عنوان: خرج ولم يعد، لم تدع طريقة واحدة لإثبات أنها زوجة محبة مشتاقة إلى عودة زوجها، واضعة اختفاءه في خانتين لا ثالث لهما، خلال فترة خاض فيها الجميع في سيرته باحثين عن سبب غير إجرامي يجعل رجلًا ناجحًا متزوجًا سعيدًا ينسحب من حياته، ربما تم اختطافه، أو اختفاؤه قسريًّا، رغم أن الأستاذ لا يصلي في المسجد ولكن ميوله الإسلامية واضحة في لهجته وكلمات معينة يقولها من وقت لآخر، والليبراليون يحبونه لأنه لا يتعالى على الطلبة ويحب العلم بغض النظر عن جنسيته أو دينه، والشيوعيون يقولون أيضًا إن الرجل لا يمتلك سيارة ولا مكتبًا، بل إنه هجر مكاتب أساتذة الجامعة المليئة بالمقاعد الجلدية الفاخرة وماكينات القهوة واللابتوبات الحديثة ووصلات الإنترنت فائقة السرعة، مفضلا انتظار ميعاد محاضراته في مكان عام، مختلطا بالجماهير، بالشعب.

ضع العنوان ودع الأذهان تنطلق، وبوسع الجميع إثبات كل شيء وضده، خلال هذه الفترة خشيت أن تبلغ الشرطة بوجود هاتف معي خاص بالأستاذ فتطالبني بتسليمه كدليل ربما يفيد في العثور عليه، حينها كنت أتحسس الورقة التي أعطانيها الأستاذ، والتي بها أرقام هواتف لا أثق أنها سترد أو تتفاعل، وأعاهد

نفسي على إنكار الأمر أمام الشرطة لو استدعوني؛ إذ لا علاقة لي بالأستاذ إلا دروس فيزياء أعطاها لي أيام كان معيدا في الجامعة وأنا طالب بالثانوية، سأقول ذلك، لقد أحسن الأستاذ اختيار خزنته الأمينة.

يبدو أنه فكر طويلا في كل شيء، بعد أن درس الشخصية الإنسانية من خلال تجربته المريرة، تعلم كيف يكذب، وأن يصدقه الآخرون، أن يخبئ أشياءه مستغلا إيمان الآخرين بأنفسهم، بذكائهم وسيطرتهم على الوضع، بأمانة الطيبين منهم حتى، ناظرا في عيونهم كما نظر في عينيَّ، في تلك الليلة البعيدة، مجيبا عن سؤالي:

ـ لا أفهم، لماذا تعطيني هاتفها إذن، لماذا لا تعطيه لها إذا كنت ستهجرها بسبب ما فعلته.

ـ لأنها لا تفهم لماذا احتفظت به من البداية، وستسيء الظن في نيتي، بل إن أول شيء ستفعله بمجرد أن تحصل عليه أن تحطمه.

توجد لحظة في أثناء الضرب تسقط فيها شهادتك الجامعية، بكل ما أدى إليها من ادعاء التحضر والانهماك في تعلم الكلمات والحروف والأرقام، والجلوس خلف دكة الدرس واصطحاب الكشاكيل والكتب والامتثال لهيبة المدرس، وبعد أن تسقط شهاداتك تأتي اللحظة التي تسقط فيها علاقاتك البشرية، درجة بعد درجة، مفهوم الأب والأم وأبناء الخال والعم، المواطنة والانتماء الإنساني ككل، مؤمنا أن قردا أو كبشًا أو أسدا (لا يحتاج

إلى لحمك لغذائه)، لم يكونوا ليهاجموك بنفس الكيفية، لابد من وجود مبرر قوي لتستمر اليد في الضرب والقدم في الركل، أقوى من قوانين القوة والضعف، في لحظة معينة تتحول إلى مجرد لحم يتألم، وكل الضرب الموجه إليك لا يهدف إلى أكثر من إبقائك في هذه الحالة لأطول فترة ممكنة، حالة كونك لحما ليس إلا، بلا مكتسبات زائدة.

لا يوجد أسوأ من الضرب والإهانة لإيقاظ الذهن، للشك عند أقل بادرة ود، حتى بعد شفاء الكدمات، تصبح غريزة، كغريزة كلب الشارع عندما يلوذ بالفرار إذا انحنيت على الأرض أمامه، تتراكض أشباح الضربات على جسده، وإذ تربت زوجته على كتفه يجفل، تخرج وتغيب قليلا فيظل في انتظارها متوجسا، يتوقع أن تفتح الباب على مصيبة، تهاتف أحدهم ويتخافت صوتها فيدخل غرفته ويغلق الباب عليه ويستعد بعصا غليظة، تبتسم لهاتفها فيظن أنها تحكي لأختها ما فعلته به في محطة القطار، وتسخر منه.

لم يلحظ حتى أنها لم تعد تنام مثله، رغم أنه يستيقظ قبلها وينام بعدها، كم مرة أخبرته فيما مضى: ما أجمل أن أنام وأنت مستيقظ إلى جواري، أشعر بالأمان؟ ينظر إلى جفنيْ عينيْها الآن وهي نائمة، كل حصونها مفتوحة والدفاعات معطلة، هل تشعر الآن بالأمان؟ عندما تنام يعيث في عالمها فسادا بشكل مجازي، هذا هو وضع الهجوم الوحيد المتاح له، فضلا عن تهديداته

بأنه سيستأجر بلطجيًّا ليضرب من ضرباه، سيشتري سلاحًا ناريًّا ورصاصتيْن فقط، رصاصتيْن لكيلا يتهور ويقتلها أيضًا بعد أن يقتل ابن عمها والرجل الآخر، كل هذه مناورات، وهو يعلم وهي تعلم أنها مناورات ذهنية، وأن كل ما يملكه هو مراقبتها، وعدم الثقة بها، وترك آثار القط الحذر إذ يفتش في هاتفها، عالما أن هذا يوترها، وكلما توترت أتت إليه، وانجمعت إلى أحضانه، واعتذرت إليه للمرة الألف، تخبره أنها أرادت أن تبرد قلبها بالانتقام؛ لهذا كذبت على ابن عمها ليضربه، استدرجتهم بعيدا لكي لا يتسبب العراك في مشاكل بين الأهل، اعذرني يا حبيبي، أنا أحبك بصدق، وهذا ما ينتظرك من امرأة تحبك بعمق إذا خنتها ولو بالخاطر والفكرة.

ولكنه لا يصدقها، حتى لو حشدت كل الصدق المتبقي في قلبها تجاهه، كنست بقايا المشاعر الصادقة الساقطة في زوايا النفس، وكومتها أمام نافذتي العينيْن المهشمتيْن من الداخل ونظرت في عينه لجزء واحد من الثانية ونطقت بحقيقة لا مراء فيها مثل: (أن الشمس ساطعة والقمر منير) فلن يصدقها، وهي تعرف ذلك، وتحذر منه، وتأخذ كل احتياطها، تمسح رسائلها أولا بأول، تضحي بما يمكنها التضحية به وتسجل لقطات شاشة للباقي وتضعه في خزنة سرية كألبوم للحظات المبهجة، تنقلها من هاتف لآخر، وتضع بصمة يدها كأسلوب وحيد لفتحها، وتضع يدها اليمنى في قفاز في أثناء نومها، البرد، أضع مرهما لخشونة

الجلد، غسل الأواني المستمر، صابونًا سيئًا، أي حجة وأي كلام، وهي تعرف أن الأستاذ لن يصدقها على أي حال، تفكر، لو مت فجأة، وعثر زوجي على خزنة الهاتف السرية، متى؟ ليس قبل مراسم الدفن والجنازة، سيكون حزينًا جدًّا ومرهقًا ومنشغلًا، من المؤكد أنه سيكتشفها بعد الدفن، في ليلة باردة يفتح هاتفها ليستعيد الذكريات، ليجد أنه على موعد مع الحقيقة في صندوق مغلق، ما الذي يجعله يشك في صندوق مغلق ببصمة يد دُفنت تحت التراب؟ هل يمتلك الجرأة عندئذ لنبش قبرها ووضع بصمة يدها على الهاتف؟ تنفض الفكرة والتصور عن ذهنها بسرعة كعقرب تسلل إلى أفكارها وقرصها.

* * *

كل هذه الأفكار وأكثر، تأتي وتمضى وتغيب مع مرور الوقت، كل القصص الصغيرة تنتهي بهذه الطريقة، تندمل الجروح ويختفي لون الكدمات ويحل لون الجلد العادي، يتحول الذئبان الجائعان إلى جروين شبعانين جالسين إلى مائدة طعام، يتناولان مزيدا من الطعام، تنهض لتجمع الأطباق ولا تنسى أن تُسقط الهاتف في جيبها، تغسل الأطباق، والهاتف يهتز في جيبها برسائل صامتة جديدة، كل اهتزازة يرتعد لها جسدها وتـزداد دقات قلبها قليلا، تختلس لحظات غياب زوجها لترد، بينما يغسل يده، وهو يبول؛ إذ ينشغل بريموت

التلفاز، ترد بنقرات سريعة على شاشة هاتفها وتبتسم ويغطس قلبها في بحر لزج من اللذة، تخرج منه سريعا بالنداء: نعم، أنا آتية، كمن يرد على جرس الباب خارجا بسرعة من دُش لطيف، وتسير بقلبها إلى غرفة النوم تاركة آثارًا لا تُرى من اللذة على البلاط خلفها، تدخل الحمام، تخلع ملابسها وترتدي قميص نوم أزرق، تغسل ما تحت إبطيْها وما بين وركيْها ما احتشد من عرق الإثارة والخوف في اختلاس المتعة العابرة، تضع معطرا ليطغى على رائحة الاشتهاء، وتخطو إلى قدرهما التعيس بخطوات ثابتة، وجه زوجها في السرير مضاء بنور هاتفها الذي نسيته في لحظة قدرية مفتوحا، رسالة واحدة كانت كافية ليعرف كل شيء، ورقة واحدة سقطت يعرف منها إلى أين يمتد جذر الشجرة في الأرض عميقا، تحاول أن تشد الهاتف من يده: هاتِ، يختلج صوتها، ولكنه صار جزءًا من يده، يحاول أن يقف ليبتعد، قدماه عاجزتان عن حمله، قدماها أيضًا، ولكنهما مستميتتان في التشبث بالهاتف حتى انشرخت شاشته، هاتِ، تصرخ وتبكي، يلقيها على الأرض ويهرع إلى غرفة بعيدة يغلقها خلفه؛ حيث سيلبث أياما طويلة يقرأ فيها كوابيسه.

* * *

ما هذه الحياة التي تتطلب ممن يريد أن يعيشها بصدق أن يكون منتبها على الدوام، مستيقظًا على الدوام، له أنف كلب،

وإلحاح حمار، وعيون خلف ظهره ليرى إذا كان من صافحه منذ قليل وانصرف عنه قد أخرج لسانه أم لا، ومخابرات سرية قبل أن تولد كلمة الحب على شفتيه ليرى إن كان المحبوب يريدها أم لا، وجهاز كشف الكذب ليرى إن كانت كلمة الود أو الحب التي يسمعها صادقة أم لا؟ ما هذه الحياة التي يسير فيها الإنسان مغمض العينين، في طرق مليئة بالأشباح؟ لا، لقد نفدت صلاحيته للحياة منذ اللحظة الأولى في حياته، معطوب، مكتوب في مكان لا يراه أحد من جسده، هذا الرجل نفدت صلاحيته فلم يعد يرى ما يراه، بل ما يريد الآخرون حوله أن يراه.

ربما لضيق الوقت، وضيق القلب، لم يحكِ لي الأستاذ كثيرا عن هذه اللحظات والأيام التي أعقبتها، اعتكافه في غرفة مكتبه، عن بكائها ونشيجها أمام الباب المغلق، عن وقوفه أمام النافذة المفتوحة في الليل، ممعنا النظر في الظلام الذي يبدو له مضيئًا للغاية، أكثر إضاءة بكثير من باطنه هو، ومن لمبات السقف المتوهجة، لقد تسلل مرتين في الليل ليشتري لمبات جديدة، أشد إضاءة، وتعارك مع البائع في المرة الثانية لأنه باع له لمبات مغشوشة، فباع له لمبات أكبر، قائلا له إن هذه اللمبات مخصصة للساحات الواسعة، وصالات الملاعب، وتستهلك نصف كهرباء السد العالي، قال ذلك وضحك، ولم يضحك الأستاذ وانصرف، غير اللمبات، هي أشد إضاءة بالفعل، ولكنه لا يكاد يبصر به شيئًا، ضوء الهاتف أشد إضاءة منه، هاتفها، الشيء الحي الوحيد

معه في الغرفة، الشيء الذي يتنفس ويتجشأ ويناور ويدعي الغباء، لقد أرسل منه رسائل غاضبة إلى الرجل الآخر، المحبوب الذي كان ينتظر ردها فتفاجأ برسائل صوتية تحمل صوت رجل بذيء، أستاذ جامعة بذيء، يهدده بأمور لم يكن يحلم بها في أشد كوابيسه، بألفاظ وقحة مثل أيور الحمير والثيران، تنكح أفكاره من فوق القماش، أستاذ جامعة بذيء، عارٍ تماما من منطق الكلام وهو يتكلم مهددا إياه بأنه سيقتله، وينكح كل جزء من جثته، بالذات فمه الناعم الذي يغوي به زوجات الآخرين، أما أصابعه التي يكتب بها هذا الكلام الطري، فسيربطها على ذكره ويستمني بها، و و..، لقد فرط غضبه على كل شيء، كرجل لم يعد يملك شيئًا ولا يخيفه ضياع شيء، إلا هاتفها، قرر أن يحتفظ به، لم يطحنه لم ينسفه في اليم لم يَذْرُهُ في الرياح، عليه صور ومحادثات مسجلة ولقطات للشاشة، أدلة كثيرة، اشتهاء وتذلل وخضوع من الطرفين، كل ما يشير باستيفاء وزيادة إلى حياته التي دُمرت للأبد.

لماذا احتفظ بالهاتف؟ في البداية قال لنفسه إنه دليل على الغضب الذي اكتسحه عندما يرتكب جريمته بقتلها، وسيعذره القضاة إذا رأوا ما يخبئه الهاتف، ولكن، ربما لو كان قد قتلها في سورة الغضب الأولى لحصل على العفو الكامل بحجة الجنون المطبق، ولكن مر يوم، شهر، عام كامل، ولا زال لم يفعل شيئًا، ولا زال يحتفظ به، هل يحتفظ به كدليل لتتنازل عن حقوقها كاملة

قبل أن يطلقها، ويرميها في الشارع، دون أن يتهمه أقاربها والناس والعالم بالجحود؟

ولكنه لم يقتلها، ولم يطلقها، وفي جرائم الشرف التي سمع بها مرارا كان يتعجب، كيف لم يقتل الزوج المخدوع زوجته؟ كيف لم يطلقها على الأقل، حتى لو كان ضعيف الشخصية، حتى لو كان بينهما أبناء؟ وليس لهذا أي علاقة بكونه هو البادئ بالخيانة، فالرجل في مجتمعاتنا لا يستطيع أن ينظر للأمر بهذه الطريقة، أو يستوعب التفكير ذاته، ومع ذلك، لو وصل التفكير به إلى قتلها أو طلاقها، فسيكون السؤال الأول الذي سيطرحونه، عليه لا عليها، السؤال الوجيه الأوحد: لماذا انتظرت ثلاث سنوات باردة لم تفعل فيها شيئًا، سحبت على جرح كرامتك بلاستر قويًّا واستمررت في السير معها، لم تطردها، لم تهشم فكها بلطمة، وبمجرد أن تجب رأسها على الأرض تهرسه بحذائك، ضربة بالكعب أو ضربتين تهشمان العظام المحيطة بالدماغ؛ عظم الجبهة والعظام الجدارية والصدغية، بالعظم القذالي والغربالي والعظم الوتدي بالوجهي، ضربة أو ضربتين بالكعب تهرسان المخ باللسان بالأعصاب بالعين بالأنف بالشفتين؛ حتى يستوى المخ بالعظم؟ لِمَ لم يفعل ذلك ولا في خياله؟ سيشهد الجيران أنهم لم يسمعوا حس شجار أو شروع في افتعاله طيلة سنوات زواجهما، بالذات السنوات الثلاث الأخيرة.

وهي لم تتوقع هذا الصمت، بعد أن فتح الباب المغلق سجدت على ركبتيها، بعد أن هدأت عاصفته وجفت عيناها، سجدت وتوسلت إليه، عادت للبكاء مرة أخرى، بللت حذاءه حرفيًّا بالدموع، وتوسلت إليه أن يحذف كل شيء من على الهاتف، ويبدأ صفحة جديدة، خذه إذا شئت، لا أريده، لا أريد بديلا، لن أنازعك، بِعْهُ وحطم الخط، لا أريد هاتفا من الآن فصاعدا، ولكن قبل أن تفعل أعد ضبط المصنع (هكذا قالتها).

ولكن من يعيد الضبط الإلهي لحياتنا يا ملعونة، الضبط الشيطاني، أو الملائكي، المعادلة البسيطة بين الملائكية والشيطنة؟ من يعيد الوساوس المعتادة، الأليفة مثل قطط، والتي تكفيها تربيتة وطبق مسطح من الحليب لتنام؟ من يعيد العفاريت الصغيرة المعتادة ويجنزر الشياطين الهائلة التي أطلقها عفريتك العابث الصغير؟ لماذا استمر في الاحتفاظ بهاتفها، يحمله جيئة وذهابا، يفتحه من وقت لآخر، يتصفح آخر المحادثات بينهما، يستنطق كل كلمة ويتوه بين زوايا الحروف، ويسأل نفسه مستغربا: ما الذي تفعله بنفسك وبأعصابك؟ يدور المدية الحادة التي طُعن بها في قلبه، كأنه يستوثق من جدية الطعنة كلما ركد الألم، هل يوجد ألم أساسا؟ لو أنه ألمٌ يهدأ بالصراخ لصرخ، لأطلق لمشاعره الجنان، وصوَّب للجدران قبضته ورأسه حتى يتهشم أحدها، ولكنه لا يجد إلا السكون، كأنه بكى طويلا. نعم، لقد بكى طويلا في حياته من أمور صغيرة وأخرى كبيرة، والبكاء كان متصلا،

لدرجة أن الكف عن البكاء أصبح هو البكاء الحقيقي، ميكانيزم الحزن انعكس فأصبح غير كل البشر، هل هكذا يجن الآخرون؟ من هول المفاجأة ينعكس ميكانيزم التفاعل، بدلا من أن يبكوا يضحكون، والعكس، ولكنه لم يجن، توقف عند حافة الجنون بالضبط، إذا كانت هناك فائدة لكل العلم الذي تلقاه وصدَّره للآخرين فستكون هذه اللحظة التي كاد أن يجن فيها فلم يجن، كل هذا الكم من المعادلات والتهويمات والمجازات تطير في أفقه الداخلي وتتلقى الرصاص العشوائي للا منطق، للعبث، كأنه تلقى لطمة هائلة على أذنه، كأن دانة مدفع انفجرت في ساحة مشاعره، فقط رؤية، بلا وعي، وشم بلا نكهة، وإحساس مترامٍ بالجلد يضاهي إحساس سائق بليد يقود سيارة نقل عملاقة في شوارع ضيقة مسببا الكوارث.

وللمرة الثانية حكى لي، كان يشرح مسألة في التوصيل الحراري في قاعة الدرس المشمسة، كل شيء يسير في مساره الطبيعي، ظل الأشياء الناتج من الضوء في اتجاهه الطبيعي، والهواء إذ يهب من جهة يبعثر في الاتجاه الآخر صفحات الكتب وشعر الطالبات، والتراب الراكد على المناضد الذي لا تبلغه كيعان الطلبة فلا تمسحه، إنها لحظة سرمدية من اللحظات التي لا يتغير فيها شيء، ولكن حياته في هذه اللحظة وصلت إلى نقطة اللا عودة.

* * *

بعد اجتماعه مع رئيس الجامعة وعميد الكلية وأستاذ المادة وتنحيته من التدريس، أصبح لديه كل الوقت، كل الذكاء، والأدوات؛ ليعيد تمثيل الجريمة، ليتمثل القاتل والقتيل وأداة القتل والسجن والقضاة والمحامي وقفص الاتهام، محتفظا بالأدلة معه في حله وترحاله. لاحتفاظه بالهاتف فوائد كثيرة، تقريب الأوقات التي كانت فيها ملتهبة العواطف مع الآخر، ربطها بالأيام والأحداث اليومية، مسرح الجريمة، يحاذر أن يدوس على اللحظات السعيدة والتعيسة فيشوهها بغضبه وكآبته، يلتقطها كما هي، يقوم بتشريحها، يجتهد ليتذكر، جهاد أكثر منه اجتهادًا، ليصور صورة كاملة بالأحداث، بالصوت والصورة، الإيماءات والضحكات، يعكس المشهد كما يعكس السينمائيون مشهد اشتعال ورقة، تهشم زجاج، انفجار قنبلة، تبطئ وتعكس، ليتوصلوا إلى كيفية حدوث الأمر، ليتوصل هو إلى نتيجة مرعبة تماما: لقد أحبت الآخر، ودون أدنى إحساس بالذنب.

هل هناك دليل أكثر من ديدنها خلال الأيام والشهور السابقة للحظة اكتشافه، كانت طبيعية تماما وعلى منوالها، وعندما تكون مبتهجة مشرقة، أو كئيبة مظلمة، تكون اللحظات التي يفضلها والصور التي التقطها؛ إذ تدهشه البهجة على ملامحها مليئة بوجود الآخر السري، عندما يلقي الآخر ظله عليها تشرق عليه وتغرف له من قلبها في إنائه الفارغ المتوسل لحظات لم يرها من قبل.

وذات مرة ـ بعد أن تصالحا ـ قالت له إنها كانت تتمزق، وعلى ملامحها تطفو جثث كل المشاعر التي تخفيها عنه، (ولكنك لم تكن ترى، كنت أعاني وأنت لم تشعر بي لحظة)، ولكن عندما يفكر، لا، لم تكن تعاني، لو قرصتها نملة، أو بزغ بعض النمش على ذراعيها أو صفحة عنقها، لو كثر الشعر المتساقط في مشطها عن معدله الطبيعي لظهرت على وجهها المعاناة الحقيقية، كانت تحب الآخر لا أكثر ولا أقل، والحب يطرد الإحساس بالذنب والمعاناة كما يطرد الكير خبث الحديد، والحب يصنع الحيل أيضًا، حيلًا شريرة، وعابثة، عشرات الحيل، ليس أتقنها حيلة القطار.

ـ لا، ولكن الأمر ليس كما يبدو.

يعود لينفي بمشاعره ما توصل إليه من حقائق ناصعة، طارحا عنوانا جديدا يصلح ليكون عنوان رواية أو فيلم كلاسيكي، أو خيبة حياتية، أو كتاب في علم النفس الزوجي للأزواج المخدوعين؛ ليتجاوزوا اللحظة الفارقة الأليمة، عندما نربت على أكتافهم ونقول لهم: لا تحزنوا، لم تحب (زوجتك) أحدًا آخر غيرك، بل أحبت شخصا عابرا، ستعود إليك وإلى أحضانك بعد أن تفرغ، تنتهي الحصة والفيلم ونصل إلى آخر صفحات كتاب علم النفس بعيون مغرورقة بالدموع، وصيحات في القاعة، صرخات ابتهال تدوي وترج الجدران: لقد ظلمناهم.. لقد ظلمناهم، يتصافح

الأزواج المخدوعون وينصرفون إلى الحياة؛ ليكتشفوا بعد قليل أو كثير من الوقت أنه تم التلاعب بهم وبأحزانهم، وأن من فُقد فُقد إلى الأبد.

لو مددت خط الأسف الذي رأيته في عين الأستاذ على امتداده لتوقع أن يؤلف هذا الكتاب قريبا، بلغة البلد الذي سافر إليه، وسيترجم، الأجانب يقدسون هذه الكتب المنبعثة من تجربة حياتية، كتب المدمنين الذين تعافوا من الإدمان، والمجرمين الذين تابوا، والسفاحين الذين يكتبون عن جثث ضحاياهم في أوقات فراغهم بالسجن، والعرب يقدسون الكتب التي يقدسها الأجانب، وسيصل الكتاب إلى زوجته الثكلى، ربما نسخة مرسلة بتوقيع كاتبها وعبارة كليشيهية ما، تجعل الآخرين يقشعرون، عبارة مثل: إلى التي خدعتني طويلا.. كل حبي وامتناني، أو إلى ضوء حياتي الذي خبا، ألعنك إلى الأبد، ستقرأ زوجته عبارة الإهداء، وستبكي طويلا على ما ضيعته، وقد تحبه من جديد، حبًّا حقيقيًّا هذه المرة، لا ينفذ الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا الفئران، ولا اللصوص، وتسافر إليه وتلقاه، ويعفو عنها، لقد كتب الأستاذ هذا الكتاب بالفعل، كتبه في ذاكرته، وتصور هذه المواقف وتحمس لها، وبكى طويلا، واستيقظ من الحلم محتلما، شاعرا بالبرد، وبصلابة الواقع.

سيكون عنوان الكتاب: الخيانة، أو الغواية، فلم تصل الأمور إلى حد الخيانة، هل وصلت؟ لا يعرف، ولكنه يعرف الطريق

الذي يسير فيه في كتابه، الفصول الأولى تحت عناوين: المرأة تختار نوع غوايتها بحرص، ابحث عن نوع الأبطال المفضلين لزوجتك، ماذا تفعل إذا أحبت زوجتك بطلًا شعبيًّا، رئيس دولة، صحفيًّا، سجين رأي، ممثلًا، بطل كمال أجسام، ملاكمة، طبيبًا جراحًا، طبيب أسنان، طبيب تجميل؟ ستحوي الفصول كل المهن الجذابة، إلا المهنة التي تدور في ذهنه كالرحى، تطحن قمح آلامه، وتطرح الدقيق الذي يصنع به خبز القراء، سيظل الفصل المختفي السري الذي لن يخط فيه كلمة واحدة.

ـ ماذا تفعل لو أحبت زوجتك مترجما؟

يعترف لي الأستاذ وهو يتنهد، نعم، أحبت مترجما، ولشهور عديدة حاول أن يعثر على إجابة، ما الشيء المميز في مترجم؟ ما البطولة في نقل فقرة من الكلمات من لغة إلى أخرى؟ ما الموهبة المحبوبة في احتراف التقمص اللساني؟ هل كان سيشعر بالعزاء قليلا لو أحبت بطلًا رياضيًّا، أو ممثلًا، أو صحفيًّا، أو حتى كاتبًا يؤلف روايات رومانسية؟ بالتأكيد لا، بل ربما كان سيشعر بالغيظ والغيرة والضياع أكثر، أن حبها لشخص لا موهبة ولا بطولة في شخصيته يعبر عن أن النوبة فاجأتها، نوبة الحب فاجأتها، كما تفاجئ البولة مريض البروستاتا، هل هناك فارق بين أن يقوم مريض البروستاتا بالتبول في حمام عام، أم على جدار في جانب الطريق أو في ملابسه؟ المحصلة واحدة للجسد،

لقد ألقت بالحب الذي أثقل قلبها في تلك اللحظة على أول شخص تصادف مروره.

لا أنسى امتعاضه عندما دفعني تعبيره: (أول شخص تصادف مروره) إلى الثرثرة عن قصة من قصص ألف ليلة وليلة، والتي تقوم فيها سيدة من أصل وحسب خانها زوجها بتمكين حمال من نفسها، رجل لم ترَ العين أقذر منه في السوق، تدخله حمامها، تكلف الجواري بخلع هلاهيله وإلباسه فاخر الثياب ورشه بالعطر، ثم تُخرجهن وتخلو هي به، وبعد أن ينتهي تعود لإلقائه في الشارع مرة أخرى عاريًا، ولكن زوجته لم تفعل ذلك، إنها لا تملك القسوة ولا القدرة على الكذب المباشر، العنيف.

مع أنه يعترف، لديها موهبة محدودة، اكتسبتها من النفاق البسيط، والقدرة الضعيفة على حجب بعض مشاعرها لبعض الوقت، كما لأي شخص آخر، ليست ممثلة قديرة طبعا، وإن كان الممثل لا يمتلك في الحياة القدرة على إخفاء أكاذيبه كما يفعل في مشاهده التمثيلية، مقولة خاطئة إن فلانا يجيد الكذب وإخفاء الأمر كالممثل؛ لأن درجة نجاح الممثل هو التواطؤ بينه وبين المتفرجين، سندعي أنك صادق وندعك تكذب لنستمتع قليلًا، هيَّا، اكذب، ولكن في الحياة لا يسير الأمر بهذه الطريقة، الكذب يحتاج لقدرة أكبر على التقمص، أكبر من مجرد أداء الحركات وافتعال الدموع والضحكات، اقتطاع جزء من مشاعرك لأداء

الكذبة، وفي أثناء ذلك تضطر لبتر جزء مشترك معه من مشاعرك الحقيقية، الأمر أشبه بالسحر الأسود، أداء الثمن، مع الوقت والاستمرار يختلط ماء الخيال بماء الواقع، وفي منطقة برزخية بينهما تضطرب مشاعرك الأساسية، درجة انفعالاتك، تكون لطيفا زيادة عن اللزوم أو عدوانيًّا بما لا يتطلبه الموقف، والأمر يكون أسوأ في الحياة الزوجية، في الاتفاق على صنف الطعام اليومي، في الكلام عن الدين والسياسة، على السرير، على أريكة، في الاتفاق على الأمور التافهة للغاية، يضطر الكاذب إلى إيجاد نقاط لتفريغ غضبه، نقاط للالتفاف حول مشاعره الأساسية؛ ليستطيع الاستمرار دون أن ينشرخ قلبه إلى نصفين.

تدريجيًّا، يتسع مقاس القلب، تنقلب الأخلاق والسلوك، يتحول الكاذب إلى شخص آخر، تحب أشياء لم تكن تحبها، وتنفعل بما لم تكن تنفعل به من قبل، يعترف لك رفيق الطريق أنه اشترى كما اشتريت أشياء تافهة تماما، يبدأ في إخراج ما اشتراه والاعتذار، لم أكن أقصد، في اللحظة المواتية تخرج المدية، يخطف لمعان المعدن انبهار رؤيتك، وفي اللحظة التالية يغرسها الشريك في رئتك تماما، ويشرع في البكاء المرير ليعوضك عن تحجر عينك من الدموع.

* * *

للعودة إلى الحياة طعم غريب، بعد أن تقوضت أركانها، في البداية تشعر بالخجل من الناس، من أن تنظر في عيونهم أو ينظروا في عينك فيلمحوا زجاج بؤبئك المكسور، عينك الطافية من حبس البكاء، من أن يدققوا في كلماتك ومواقفك في الحياة فيفطنوا أنك بقرار غفران واحد أقمت حياتك الواهية، قرار غفران مررته بعيدا عن قلبك وعن عقلك وعن كل منطق، بكلمة وعد من خائن، بزهد لص في جيبك، وبرحمة قاتل لا منطق لديه في القتل إلا لذة الدم.

تقول له نفسه الأمارة: قم الآن واقتلها وتخلص من كل جيف أسئلتك، ركلة واحدة جريئة ستختم بشرف كل أفكار الانتقام السريعة التي تراودك، ليس أقلها صفعة على وجهها وهي نائمة أو حز أصابعها البيضاء الرخصة بالسكين المشرشر. جذب المخدة من تحت رأسها في حركة سريعة ليلتف على عنقها وينكسر، لكمها في فمها وهي تتكلم ليغص بالدم وكسر الأسنان العاجية، كان وجهها بالذات يثير غضبه، قدرتها على الكلام، على تحويل الهواء إلى عبارات وثرثرات بينما هو عاجز عن ذلك، ترتد عليه كل هذه الأفكار الانتقامية، تثير شهوته بشدة، ليس إليها، ليس إلى أحد محدد، بل يشعر برغبته في استبقاء هذه الشهوة بداخله أطول وقت ممكن، مثل المدخن الذي يستبقي الدخان في صدره طويلا حتى يخرج بسعلة قوية واحمرار العين، أصبح مدمنا لرغبته في التنكيل بالنفس. فقء دمامله، تأطيرها، والمتاجرة بها في سوق نفسه الغريبة.

ثم زال هذا الطعم المخاتل، بدأ في الشعور بجلد حياته المخدر، وحلت السخرية محل الألم، والخوف محل الغضب، خوف كامن كعلقة في القلب، تمتص الدفء في ذكرياته، والانتباه إلى ما يدور أمامه مباشرة، والبهجة التي يفتح بها عينه في الصباح، يصير شخصًا باردًا في الشتاء حارًّا في الصيف، مليئًا بالطرق الملتوية، محمومًا، من قال إن الغفران يمسح الماضي، ويعيد للنفس الغاضبة صوابها، وإن قص ذيول وأجنحة كل الأسئلة ـ التي لن تنتهي أبدا ـ وتركها تجول على الأرض سيمنعانها من أن تلتقط الحَب الشارد وتسمن؟ ليس الغفران إلا توجيه ما تبقى من أثر الضربة الهائلة التي وجهها لك الآخرون إلى داخلك ذاته، فتمتلئ بالشظايا، لقد غفر لها وصار هو شخصا ملعونا، يعيش داخل جلده كما يعيش رجل وحيد في مدينة كاملة، يصخب، ويجري، ويشعل النيران، يصعد فوق أعلى بناية وينتحر، ويلملم جثته، ويستدعي الطبيب ليخبره أنه مات، يقوم بالدفن ويتلقى واجب العزاء منه فيه، دون أن يشعر به أحد.

ـ في هذه الأيام التمست العذر لكل شيء يمكن أن يؤذيني ولو بغير إرادته؛ للثعابين والشياطين، للنار المحرقة ولشظايا الزجاج، لحجارة الطريق التي أتعثر فيها، وبدأت أبصر أن الزواج مشروع سيئ، ولولا ظل الشرع عليه لأصبح الأسوأ على الإطلاق، علاقة عصبية لا تسمح باختلاف الآراء ولا بوجود علاقات أخرى كالصداقة والولاء لكيان جدير بالانتماء، لولا الزواج

ما اخترع البشر غرفة النوم والصالون والسفرة وغرفة النوم الإضافية والمطابخ ودورات المياه، وما صار الواحد منا مشتتا بين المسافات والمساحات كدمية لا حيلة لها، الزواج يعلمك الكذب والاستدانة والكسل والبرود، ولو تعلمت هذه الصفات خارج نطاق الزواج فأنت شيطان آدمي، يكفي أن تكون ثمرة الزواج الوحيدة ثمرة عطنة، يلعنونك لأنك لم تفعل لهم الأكثر لتأمين مستقبلهم.

* * *

أخمن، أنه في هذه الأيام بالذات ظهر الأستاذ على عتبة المسجد الذي أصلي فيه، بدا كطائر غريب، مدشنا لغرابته بسلسلة من التصرفات المضحكة، سأل أولا عن مكان دورة المياه، ولدخولها بحث لفترة طويلة عن طقطقتين مترادفتين (شمال ويمين) دون جدوى، فتح ماء الصنبور فانفجر رشاش الماء وبلل سرواله، وفي انتظار الإقامة أخذ يتأمل في نقوش السقف متعجبا.

بعد انتهاء الصلاة وانصراف الناس أتى ليدق الباب الموارب لغرفة الشيخ، ومن ثم أخبره ـ قبل أن يجلس ـ أنه جاء ليسأل عن تفسير حكاية في الدين، أو كما قال: رأي الدين في حكاية، امتعض الشيخ أو تظاهر بالامتعاض وأخبره أن الدين لا يقول رأيا بل حكما.

في جانب من الغرفة الصغيرة المكتظة بالكتب وأدوات المسجد كنت أجلس، منصتا إلى حوارهما العجيب، صامتا، لا أشجع دور العاقل الوحيد الذي تقمصه الشيخ ولا المجنون الوحيد الذي استمرأه الأستاذ، ولم أفق من خواطري إلا والأستاذ ينظر لي بطريقة عفوية للغاية، مندهشا قليلا من وجودي، ناطقا باسمي في تثاقل وكأنه ينزعه بلسانه من بئر ذاكرة بعيدة جف ماؤها، فهززت رأسي أن نعم، أنا هو، فابتسم ابتسامة لم أفهمها وواصل حديثه مع الشيخ.

يحلو لي أحيانا أن أفكر بطريقة تجعلني أكثر مركزية، أن الأستاذ ـ مثلا ـ عندما أتى من أجل لقاء الشيخ كان يعلم أن هذا المسجد هو مصلاي المفضل، ولو صدقت اندهاشه وعفويته في استدعاء اسمي من ذاكرته البعيدة لحلا لي أن أظن أنه اندهش لوجودي فقط ليس إلا ـ في هذا المكان والزمان ـ ولم يندهش لوجودي بالكلية، فبدون هذا التصور سيكون عليَّ أن أتعامل مع وجود كالعدم قبل هذا اللقاء؛ فنحن نولد خلال حياتنا مرات عديدة بوجودنا في أذهان الآخرين، ببقائنا في محيط رؤيتهم العقلية، وبإسناد أدوار هامة في مواقفهم الحرجة، بدون هذا التصور سيكون عليَّ أن أتعامل مع فكرة أن الأستاذ كان سيعطي الهاتف لأي أحد، وأن لا ميزة لي غير أنه استطاع أن يحكي لي حكايته، ولكن هل هذه ميزة يستهان بها؟

في لفيفة للأوراق التي تركتها لي زوجته أسماء عديدة كانت مرشحة لتحل محلي، كلها أخذت (الشيء) من الأستاذ، ولم يفرطوا فيها في سيناريوهاتهم المتوقعة، بعضهم يقيم خارج حدود بلدتنا، بعيدًا عن متناول زوجته، ميزة لا يستهان بها، ولكني لا أعلم ما الذي جعلني مرجحا عنده، هل لثقته في أخلاقي؟ فأنا الوحيد الذي يعرفه بشكل ما، رغم خطورة مكاني، إمكانية ممارسة الضغوط عليَّ من الأهل، هل أراد تعذيب زوجته، التنكيل بها، بفكرة أنه يمكنني أن أفض غلاف الهاتف في لحظة ضعف بشرية وأطلع على ما فيه، وأخبر الناس به، أو أتعرض للسرقة؟ فأنا مهما أوتيت من حرص فلن أكون كالأستاذ، لماذا أصر على وضع العنصر البشري في الأمر من أساسه؟ كان لديه عدد لا يستهان به من الخيارات المختلفة؛ لحماية شيء لا يتعدى حجمه ووزنه كف طفل صغير، ولديه أسبابه للاحتفاظ به، لقد عشت هذه الحيرة لفترة لا يستهان بها، بعد أن سُلطت الأنظار عليَّ، الاحتفاظ به في خزنة ببنك، دفنه عميقا، وضعه في مكان ثابت على أمل أن لا يعثر عليه أحد.

بعد أن انتهى الأستاذ من نقاشه مع الشيخ صافحنا وانصرف، وخرجت من المسجد بعد خروجه بقليل فوجدته ينتظرني، اعتقدت أول ما ابتدرني بالحديث أنه سيطلب رأيي في المسألة التي تناقش فيها مع الشيخ، خاصة أن نظراته استنجدت بي خلال الحوار عدة مرات، ولكن أزمتي لم تكن في الترجيح

بقدر ما كانت في التفهم؛ فأنا أتفهم الاثنين وأرى من أي أرض ينبع موقفهما، والرجل المتفهم رجل قليل الكلام كثير الابتسام، تحسبه معك وهو ليس معك، وتحسبه عدوك وهو يستطيع أن يجادله مثلك، لا ينصرك ولو بخردلة، وجل مزاياه أنه لن يرتكب إثم التعصب لرأي أبدا، أن المتفهم طريق صدق وَعْرٍ في أرض قُدَّت من النفاق والتعصب.

ولكن الأستاذ خالف ظني فلم يذكر الشيخ إلا باندهاش عن وجودي معه، وطوال سيرنا معا، بدا لي كرجل يرغب في استبقائي لوقت أطول من وقت الطريق إلى بيت أقربنا وهو بيتي، غير أنه لا يملك الذريعة، ثم فقد الحماس، وصافحني وانصرف.

لن أنتبه بعد ذلك إلا بوقت طويل أنه قال لي كل شيء أراد قوله، في الحوار البسيط الذي دار بيننا وكان عن الكتب، فائدتها ووجودها في حياة الناس، قال إن كثرة الكتب تكريس للضعف، وفقدان للذاكرة الإنسانية، أظهر بغضا شديدا لفكرة القراءة الحرة، والاحتفاظ بالكتب إلا في استعمالها كقيمة استدلالية في علاقات كالتي بين الأستاذ وتلاميذه، وبين شيخ المسجد والعوام من الناس، لكن في المستويات المتقاربة من العلم والفهم لا يصح أن يُستدل بالكتب، يجب أن نعطي القيمة الحقيقية للمناظرات الشفوية، العلنية والسرية، وأن نختصر الكتب التي يجب أن يستدل بها فلا تتعدى أصابع اليدين، أما باقي العلم

والدين فموجود في المعامل ودور العبادة، في السيارات التي تسير والطائرات التي تطير، في الصلوات والطقوس.

فيما بعد سأقرأ كلمات كليمنت السكندري: كتابة كل شيء في كتاب بمثابة وضع سيف في يد طفل، ولن أتعجب من صدور نفس الكلمات تقريبا من شخصين بعيدين كل البعد في الثقافة والزمن، ولا يحملان إلا قيمة واحدة هي قيمة التعليم الشفهي.

ـ ولكنك تتكلم من منطلق أستاذ في الهندسة، تقوم بتدريس الفيزياء وتوقن أن البشر يستطيعون إقامة الحضارة بعد انهيارها بشكل عكسي من دراسة طائرة واحدة أو سيارة واحدة، ولن أناقشك، مع أني أخالفك هذا الظن تماما، أريد أن أسألك سؤالًا واحدًا، هل انتقال الأفكار غير العلمية والمعاني والقيم يمكن أن يتم خلال الأشخاص، كأئمة المساجد وشيوخ الأزهر والقسس والرهبان؟

ـ لو تتذكر، فيما مضى كان انتقال هذه القيم وزوالها لا يتمان عبر انتقال الكتب، أو ترجمتها، بل يتمان عبر تبادل البضائع والسفر والتجارة والحروب الاستعمارية، والآن يعتبر رواج مطاعم مثل ماكدونالدز وستاربكس دليلًا على وجود تدفق فكري موجود يتجاهل الكتب أيضًا، الأشخاص هم كل شيء، هم الأوعية الحقيقية للأخلاق، والقيم، وإلا قل لي: أيهما يمكن أن يقنع رجل الشارع بأهمية العلم والدين أكثر؛ شنق

رجل دين على رأي واحد له، أم تفسير كامل للقرآن؟ صورة طائرة يراها أول مرة في كتاب، أم مشهد مرورها في السماء؟ ولكننا لا ندرك هذا للأسف في عالم وميضي الذاكرة، تقتنع بالرأي والرأي الآخر خلال أسكرول الماوس، ويروج المثقفون أنفسهم لعوالمهم عبر العلامات التجارية للقهوة والأكل والملابس والأجهزة الإلكترونية، والإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي. قادر الآن على تصنيع قيمة زائفة وإقناعك بأفكار لا يمكن أن تقتنع بها في بيئتك، الميجا بايت صارت أغلى من دم الإنسان، وفضيحة أن يشاهدك الناس عاريا على الطبيعة أهون من أن يتناقلوها عبر الإنترنت. مكتبة سُر مَن قرأ

حكى لي بسخرية عن واقعة كان هو شاهدها الوحيد، فراش المدرج الذي يعطي فيه محاضراته اكتشف خيانة زوجته، ليست خيانة جسدية بل خيانة روحية عن طريق التحدث بحرارة في الهاتف والفيسبوك مع رجل آخر، أو كما وصفه رجل آخر متزوج ولديه أولاد.

أخبره فراش المدرج أنه ضبط تلك المراسلات وثارت بينه وبين زوجته قطيعة ولا يعرف القرار السليم: هل يطلقها؟ هل يقتلها؟ وما بين الخيارين أفكار شتى مجنونة لا يحتمل التفكير فيها طويلا ويوشك أن يجن بسببها، فجاء يطلب نصيحته. قام الأستاذ بتخفيف الأمر عنه، بعبارات شبيهة بأن الملل الزوجي

يصنع مطبات كهذه في الحياة، ونصحه بعض النصائح الزوجية، من قبيل أنه من الأفضل أن يبتعدا عن بعضهما لفترة، أو يصنعا مزيدًا من الذكريات بعيدا عن ذكريات الجلد. لقد اطمئن كل واحد منهما إلى امتلاك الآخر، هذا هو الفتور، الخرس الزوجي، أزمة منتصف العمر، قال له: حاول أن تعوضها بالرحلات، بالأغاني العاطفية، بالمطاعم، بالذهاب إلى الحدائق.

ـ وأنا أتكلم مع الفراش كنت أتكلم من منطلق خلفيته الثقافية، أحاول رفعه درجة أعلى في تطوره العقلي ليتجاوز أزمته، دون أن أنتبه إلى نقطه هامة للغاية، أن فراش المدرج يعيش حالة ثقافية أعلى بالفعل دون أن ينتقل إليها، أن يصادف رجل مشكلة وجودية كهذه وهو منقسم بين بيئتين ثقافيتين متتاليتين تماما، غير مدرك لأزمته، هذا مثل ارتداء جاكت على جلباب، وهذا من مساوئ إتاحة ثقافة كثقافة التواصل الاجتماعي في مجتمعات كهذه، هل تفهمني؟ سأشرح لك أكثر؛ في الخلفية الثقافية التي يسكنها فراش مدرج يعيش في مدينة يجب أن لا يأبه بالخيانات الروحية، ولا تهتز له شعرة إذا أحبت زوجته رجلًا آخر طالما أنها لم تصحب معها هذا الحب إلى أرض الواقع، أقصد إلى فراشها، ولكن إليك الورطة التي وضعتنا فيها وسائل الاتصال الاجتماعي ووضعت فراش المدرج المسكين في أن يصطحب معه مفردات عقيدية ثابتة مثل الزنا والكفر والخمر إلى عالم متعدد المفردات، لدرجة يمكن أن تجعل المعاني متميعة لأقصى درجة.

ظل الفراش مصرًّا على أن الخيانة الروحية كالجسدية تماما، تورط سري عاطفي ينتهك الالتزام بحصرية العلاقة، وأن (الزنا) يبدأ من السمع والرؤية والتخيل وينتهي بالواقع، بل إن الخيانة الواقعية لو حدثت بدون مقدمات روحية يمكن تبريرها أحيانا، يستطيع الرجل أو المرأة أن تقول إنها فتنت، ضعفت، حوصرت، ولكنها لو أحبت، فلن يكون الزنا إلا تحصيل حاصل بفعل الزمن.

قال لي إنه اندهش أن الفراش يمتلك تلك الكلمات أصلا فضلا عن امتلاك الفكرة؛ فهؤلاء الناس لا يؤمِّنون على الخيانات الزوجية إلا بانتفاخ البطن والمرود في المكحلة، ضحك وتضاحكت، ولم تعجبني سخريته من الرجل الذي ائتمنه على سره المخزي، بدا لي كنوع من الاستهانة بعقل في أمر تحكمه الغريزة الإنسانية، والغريزة مع أنها واحدة إلا أنها تعتمد على سُمك الجلد، والأديان التي يسخر منها ـ لو قرأ قليلا ـ تكلمت عن درجات الخيانة بالتفصيل وقامت بتحريمها، في الدين الإسلامي مثلا: ولا تقربوا الزنى، ما هو الاقتراب من الزني إن لم يكن الاقتراب من مسبباته، أخبرته بذلك، وبعد أن أدار كلماتي في عقله كما يدور مدمن الخمر الثمل ثمالة كأس لم يعد يرغب في إتمامها.

ـ على العموم، الحمد لله أن هذه مشكلة الفراش لا مشكلتنا نحن.

* * *

أعتقد أن دوري قد تحدد في هذا اللقاء الأول، عندما دافعت عن فراش المدرج، واختلف موقفي عن موقف الآخرين الذين حكى لهم في كل مرة، بعد أن بدل بطل حكاية الخيانة؛ فهو فراش المدرج مرة وتاجر الخيوط أحيانا، وربما أستاذ قديم لمادة الفيزياء التي يدرسها، وابن عم زوجته، ورفيق السيارة الذي يغشه، وأشخاص آخرون عديدون في حياته، محددا شخصيات أكاذيبه بدقة، يبعدهم بالجغرافيا، وينكل بهم عالما أن من يستمع إليه فلن يدقق، (من يبحث عن فراش مدرج جامعي ليرى إن كانت زوجته خانته، أم لا؟)، منتقما ممن أهانوه وغشوه في حياته بجعلهم هدفا لسخريته وظهر مجن عند قراءة عقول الآخرين، بطرح ما يخشاه من أفكاره على أنها أفكارهم هم.

رأيته بعد ذلك في المسجد عدة مرات، عرفت أنه لا يأتي ليصلي إلا ليزور الشيخ، صارت هذه فقرة ثابتة، توطدت صداقتهما (أو عداوتهما)، عرف مكان دورة المياه حتى صار بإمكانه أن يسير إليها مغمض العينين، وفطن إلى أن القباقيب هي أفضل خيار، ثقيلة ورغم تبللها لا تسبب الانزلاق، ولا يوجد منها فردة يمين أو شمال، بل أحادية الجنس، وعلمته التجربة أن يفرج ما بين ساقيه عند فتح الصنبور لئلا يتبلل سرواله؛ وذلك حتى يستقر مسار رشاش الماء نظرًا إلى أن قيم المسجد دق في فوهاتها خوابير خشبية تخنق الماء لعدم الإسراف، ولم يعد يأبه بنقوش

السقف ولا الأخطاء الهندسية في فرش السجاجيد، لا يمعن النظر إلا في باب غرفة إمام المسجد مستعدًّا لإحدى شيطناته، يشكو لي الشيخ مبتسما:

ـ إن صاحبك لا يقرأ ولا يريد أن يقرأ، كل ما يريده أن يتناقش وأن يؤلف في الدين كما يحلو له.

كأنه يفرغ طاقة مكبوتة بداخله ـ وصفه الشيخ ـ شخص يريد العراك فحسب وتفريغ سمه في شيء هادف ونظيف؛ فهو يأتي إلى المسجد ليناقش في الدين بدلا من أن يذهب إلى الأسواق ومحطات السيارات والباصات ليسب الدين؛ ولأنها ليست أماكن مناسبة لأستاذ جامعي مثله.

لم تعجبني نظرة الشيخ للأستاذ، ولم أكن أعلم أنني على موعد مع حكايته، إلا أن القدر ـ لا الحرص ـ كان حليفي في أن أحضر بعض أجزاء من نقاشاتهما، وأن أكون فكرة. لا شك أن حكاية عبد الله بن المبارك مع صاحبة الدجاجة الميتة كانت ملهمة له جدًّا، بادئا باستنتاجات كلاسيكية وسينتهي ـ كما عرفت فيما بعد من الشيخ ـ بالنتيجة التي انتهى إليها معي: أن الله لم يخلق ملاكا من العدم، ولم يأمر ملاكًا بتمثل صورة عبد الله بن المبارك، إلا أن الشيخ تخلى مع الوقت عن استنتاجه، انطباعه الشخصي عن الهدف من نقاشات الأستاذ: أنه يريد تفريغ سمه في شيء نظيف وفقط، بل يقول لي في حيرة:

ـ أشعر طيلة حديثه أنه يدور حول نقطة معينة يريد أن يقولها ولكنه خائف، أو لا يعرفها جيدا، يقترب منها إلى درجة الشطط، يحوم حولها كما تحوم الهوام حول النار لكنه لا يحترق، ومن كثرة ما يجتنبها ويبتعد عنها لكيلا أسيء الظن به، قد يقع في مزالق أخرى أشد هلكة، لكم أود أن أخبره أن يرتاح، وأن يقول ما يدور بخاطره ولو كان كفرا.

ـ ولو قال كفرا، فهل ستناقشه وتستمع إليه بلا غضب؟

ـ لا أدري، ولكن لديَّ قاعدة ثابتة، لا يستقيم الظل والعود أعوج، إن ما يود أن يقوله صاحبك الأستاذ مهما بلغ من الشطط لن يتجاوز استنتاجًا على حادثة لم تثبت أصلا، فقصة عبد الله بن المبارك مع صاحبة الدجاجة ذكرها بن كثير في كتابه (البداية والنهاية) بلا إسناد.

أوقفت لساني قبل أن أتهم الشيخ بأن ما يقوله يقوله حرصا على قلبه من الزيغ، بغض النظر عن قلب الأستاذ.

ـ لماذا لم تخبره بذلك؟

ـ أخبرته بالفعل، ولكنه لم يفهمني. من الصعب أن تتناقش مع رجل يظن أنه يفهم كل شيء، أو بوسعه أن يفهم كل شيء، يخلط بين المعاني في المصطلح واللغة، ويعتقد أن السند الضعيف هو احتمالية إحصائية للصدق والكذب.

ثم صمت قليلا وقال متأسفا:

ـ صاحبك لم يعد يهتم أصلا بصحة الحكاية من عدمها، أقصد السند، شأن من أقام بنيانا هائلا فوق أساس ضعيف، هائلًا لدرجة تجعلك تشفق عليه من هدم كل هذا بجملة واحدة تقولها بدون قصد.

* * *

وأعود لأشك، ربما لم يأتِ الأستاذ إلى المسجد منذ البداية من أجلي، بل من أجل الشيخ. يبدو لي هذا الافتراض أكثر تناسقا مع معطيات الأمر، أراد الأستاذ أن يروي له حكايته، دار ولف ووضع الشيخ تحت وطأة اختبارات مختلفة ليرى إن كان مناسبا أم لا. في وقت ما كان الشيخ هو أفضل خياراته ليترك (الشيء) معه، ففشل في كل اختباراته، أو بعضها، الهام منها؛ فأصبحت أنا التالي في قائمته، أهذا أمر يجب أن أفتخر به؟ أسأل نفسي: ما مدى ثباتي على المبادئ، ومدى ليونتي، بالمقارنة مع الشيخ، في وقت كان هو فيه قدوتي في هذه الأمور بعينها، مع أن قسوته كانت تذهلني في تنزيل الأحكام على المواقف والحكايات، إلا أنني أبصر فيها الرحمة على المدى الطويل.

وربما كانت هلاوس، هل كانت هلاوس؟ لماذا إذن لم يسألني الشيخ عن غياب الأستاذ رغم أننا نناقش غياب أناس أقل في الوجود والأهمية، حتى لو عرف بأمر الغياب من طرف خارجي

وآثر أن لا يتكلم عنه، لابد أن يعرف ضمنيًّا بأمر وجود (الشيء) معي عبر نفس الطرف الخارجي؟ ربما عبر أبي الذي شاهدته عديدًا من المرات يصلي معنا على غير عادته، فلماذا لم يتكلم عنه؟

ولأنني لم أزل مواظبا على التردد على استراحة الشيخ بالمسجد، توقعت أن خلوة الاستراحة ستتعكر ذات مرة بعد أن يرفع رأسه فجأة ويستهل حديثه سائلا إياي:

ـ والآن، ما حكاية الهاتف الذي تركه الأستاذ معك؟

ولقد ساد بيننا ذلك الصمت المنذر بأن خلفه حديثًا طويلًا شائكًا، وأطرق الشيخ برأسه تلك الإطراقات التي تنم عن أنه بعد أن يرفع رأسه منها سيغلب تردده بالحديث الذي حيره، وبالفعل رفع رأسه مرة بعد مرة وتكلم في أمور شتى، عن الطقس وأصناف الطعام وظهور وغياب آحاد من المصلين، ولم يسألني قط هذا السؤال، ومعرفتنا بالأشخاص تدور على طريقتين، خاصة إذا أتت وتوثقت عبر الكلام، الكلام فقط، والنقاش الكثير، فإما أن نعرف العبارة التي سيقولها الآخر في نوع حوار معين، وإما العبارة التي من المستحيل أن يقولها، ومعرفتي بالشيخ تجعلني أجزم بالعبارات التي لا يمكن أن يقولها.

لهذا أعرف أن حديثا كهذا لا يمكن أن يبدأ بهذه الجملة؛ وهذا ما يجعلني مطمئنا قليلا؛ فأنا لا أستطيع أن أحكي له ما حكاه

الأستاذ، من قبيل الأمانة، فما حكاه جزء لا يتجزأ مما أعطاه لي، وإصراري على عدم تسليمه لزوجة الأستاذ نابع من معرفتي بحكايته، وكثيرا ما سألت نفسي: لو جاء الأستاذ وأعطاني ما أعطاه لي دون شرح، فهل كان إصراري سيظل كما هو؟ أعتقد أنه تقصد ذلك، وأقامني دون وعي مني قاضيا على شخصيات مأساته لأنكل بهم.

جزء آخر من طمأنينتي عائد إلى أن الأحكام الفقهية ليست قائمة على التفاصيل، بل على المواقف المجردة، هل تجوز خيانة الأمانة وإعطاؤها للخصوم؟ هذا هو موقفي المجرد، ولكن من قال إن خصومي لا يملكون مواقف مجردة بدورهم، وربما أكثر قوة من موقفي؟ هل يجوز الاحتفاظ بما يشين امرأة؟ هل يجوز للزوج أن يشارك رجلًا غريبًا مخازي زوجته؟ وهكذا: هذا هو موقف زوجة الأستاذ المجرد.

أحيانا كنت أتوق إلى أن أبدأ الحوار بنفسي مع الشيخ، كجزء من الاستشارات الدائرة بيننا في مواقف شتى، ولكن يقيني أنه على علم بالأمر، بل معرض عن الكلام عنه، جعلني أشعر بكثير من السخافة في هذه الرغبة، بل بالأنانية، إذا كان قد آثر الصمت وتجنب الحديث، فلا بد أن الأمر لا يعجبه، فلماذا أجبره على ذلك؟

ولكن من يضمن لي أن يظل هذا موقف الأستاذ النهائي، وأنه لن يفاجئني؟ لماذا لا أخبره مثلا ذات مرة: هناك أمر ما أريد

أن أناقشك فيه، بل أردت ذلك كثيرا، ولكني أعرف أنك لا تود ذلك وأنا أحترم ذلك؟ هكذا ينتهي الأمر تماما، ويزول خطر أن أخوض النقاش مع الشيخ، وأن يقنعني، وهو الوحيد الذي يستطيع إقناعي.

لكن بقاء الأمر معلقا بهذه الطريقة جعلني مثارا ومتأهبا طوال الوقت، بينما جزء من عقلي يقيم الحوارات في الخلفية، تارة أنتصر وتارة ينتصر الرأي المضاد، فأسأل نفسي: لماذا لم يشركوه في معركتهم حتى الآن، بعد أن جربوا طرقا شتى للنيل مني؟

واحذر مما تتمناه كما يقولون، كنا في الشتاء بعد صلاة العشاء وقد لبثنا في الاستراحة وقتا أقل من المعتاد، وهممنا بالانصراف إلى بيوتنا هربا من البرد القارس، شرعت في ارتداء حذائي على باب المسجد بينما يبحث هو عن قفل الباب حيث تركه، تحت طرف ناتئ من سجاد المسجد بجانب صندوق الأحذية، وسمعته يسألني:

ـ بالمناسبة، متى سيعود صاحبك الأستاذ؟

* * *

في النقاشات التي حضرتها بحكم تواجدي معظم الأوقات مع الشيخ في الاستراحة، أعرف أنه يطرح أكثر الأسئلة عقلانية وأبعدها عن البال، يتجاوز العصبية والتعصب، الأمل والتعلق،

الغرور العادي والغرور النابع من إدراك الأمور، وكأنه استقل آلة زمن وسافر ورأى العواقب وعاد، أو عاش هذه الحكاية بحذافيرها عشرات المرات من قبل، لدرجة الملل. ولقد هممت حينها بالجدال، فتحت فمي بالفعل لأجيب عن سؤال الشيخ ثم انتبهت، أنني واقع في حالة من الدفاع المستمر لدرجة أن أحاول الإجابة عن سؤال لا إجابة له.

إلا أننا أحيانا ومن قبيل الشجن، نلتمس إجابات أسئلة لا إجابات لها، غافلين عن حقيقة أن من يطرحونها من قبيل السخرية والتعجيز لا ينتظرون إجاباتنا، بقدر ما يقصدون الإجابة عن سؤال آخر لم يطرحوه مباشرة، والسؤال كان: إلى متى ستظل محتفظا بالأمانة التي أعطاها لك الأستاذ، تقاتل عنها هذا القتال المرير؟

ولكن لا، ليس مع الشيخ، ليس بعد كل هذا الوقت، وأي كلام أقوله في هذا الطريق لن يزيد موقفي إلا سخافة، فها هو رجل لن يطالبني بأن أسلمه الهاتف إن انهزمت، يجب أن أستريح، وأقول ما ناء به صدري طويلا.

بدأت بالشرح، ما لم أقله لأحد من قبل، وبلهجة هادئة قَلَّ أن تحدثت بها في الأيام الأخيرة، شارحا له أنني ومن يطالبونني بتسليم الهاتف نؤمن بأمريْن متضاديْن، وعبثا حاولت أن أوصل هذه الفكرة للجميع؛ أبي وأمي وإخوتي رغم اتهامهم لي، ابن عم زوجة الأستاذ ورفيقه، بل حتى زوجة

الأستاذ التي تفهم كيف يفكر الأستاذ؛ فهم يؤمنون بأن الأستاذ سيعود فورا إذا سلمت لهم الشيء وأنا أومن أنه لن يعود أبدا إذا أعطيتهم إياه.

ـ تريد الزوجة عودة زوجها، ولا تؤمن بما تؤمن به أنت.

ـ ولكنه لن يعود.

ـ ولو كان إحساسها صحيحا، وتخمينك صائبًا، لو كان فعلا يراقب من مكان بعيد، منتظرا أن تنهي أنت المسألة برمتها ليعود؟

ـ ولماذا لم ينهها هو بنفسه؟

ـ بربك، أنت تعرف الحالة التي كان عليها الأستاذ قبل أن يغادر.

ـ لنفترض، أليس ظلما أن أضطره للعودة بتسليم الشيء الذي تركه معي لزوجته قبل أن يبرأ من حكاية لم أبرأ أنا نفسي منها حتى الآن؟

ـ إذن أنت تفرق بين الزوج وزوجته بوازع من إحساسك الداخلي.

ـ التفريق الذي أقوم به تفريق مؤقت، ألا يقوم القاضي بذلك بشكل نهائي؟

ـ احذر يا صديقي؛ فالقاضي يمثل القانون والشرع، ماذا تمثل أنت؟

قلت معاندا:

ـ لو تكلمنا عن الشرع، فستكون خيانة للأمانة إن سلمته لهم.

ـ أنت تعرف الأستاذ أكثر منا جميعا، وتعرف أنه لو أراد أن يخفي هذا الشيء بعيدا عن متناولهم ما أعطاه لك، ولوضعه في خزنة أمانات أو ما شابه.

ـ لماذا أعطاه لي إذن؟

ـ السؤال الصحيح الذي يجب أن تسأله هو: لماذا أخبرك بما أخبرك به قبل أن يختفي؟ ذكرت منذ قليل حكاية حكاها، ويمكنني أن أخمن أن الحكاية عن زوجته، أليس كذلك؟

ـ لا يمكنني أن أخبرك.

هز رأسه متأسفا حينئذ وقال:

ـ احذر يا صديقي، أنت متورط، فأنا لم أرك بهذا التعصب من قبل حتى في أمور جوهرية.

ـ لأن الأمر لم يكن ينبغي له أن يكون بهذه الصعوبة، وفي كل خطوة أشعر بشعور قائد معركة كان لديه يقين أنه سيكسب معركته من الجولة الأولى، ثم اكتشف بعد أن خاضها أنه لن يكسبها على الإطلاق، ليته يخسر، ولكنه لن يكسب ولن يخسر.

ـ ولماذا تقود معركتك بنفسك؟ لدينا قائد أعلى في كل مواقفنا الحياتية.

ـ من هو؟ الله، الرسول، لقد نفذت تعاليم الدين بحذافيرها، لا تخن الأمانة، ولكنكم عقدتم الأمور، خسرت كل أسلحتي في معركة محسومة سلفا بحكم الدين والعرف، مضى الوقت الذي وجب فيه أن أشرح وأبرر، ولم يتبقَّ لي إلا الموقف، ولو كنت كما تقول جنديًّا ولست قائدًا، فهل تعرف إحساس الجندي الأخير في معركة، بعد أن مات كل زملائه وأعدائه ولم تبقَ إلا الراية؟

ـ صح توقعي إذن، هي لعبة أنت عنصرها الأساسي، لا يمارسها باقي الأطراف بالشرف الذي تمارسها به، بالذات الأستاذ، أكثرهم تجردا من الشرف والمنطق الصحيح.

ـ لا بد من وجود شخص شريف واحد على الأقل في الموضوع.

ـ إن وجود شخص شريف في حكاية مليئة بالأفاكين لا يعيد الأمور إلى نصابها، بل يخلق مزيدًا من المآسي.

أوشكت أن أرد بصوت عالٍ أنني لست كما يظن، ساذجا، وأن أيامًا طويلة من إمعان التفكير تحيلني إلى إساءة الظن بالأستاذ، على مستوى أكثر مكرا مما يعتقدونه، وأنه لم يأتِ المسجد ليطرح أسئلته، بل لتجربة إجاباته الشخصية والتوثق من صحتها على المخالفين، بطريقة هي التنكيل ذاته، بأحبائه قبل مخالفيه، بالشفوقين قبل القاسين عليه؛ ليضعنا في محنة واختبار من شأنهما أن يعريانا أمام أنفسنا والآخرين بأنفسنا ودون أن نتجرأ على القول

إننا لم نكن واعين؛ فالأستاذ فقد مع فقدانه الثقة بزوجته الثقة بالقيم الأخلاقية التي يمكن أن تدافع عن موقفها.

شيء ما يخبرني باستمرار أن الأستاذ خدعني بنسب متفاوتة في كل ما أخبرني به تلك الليلة، خاصة عندما سألته عن علاقة حكاية عبد الله بن المبارك بحكايته هو، فأجابني أنه لا علاقة بل هو نقاش أراد أن ينهيه قبل أن يسافر.

وربما كان هذا من باب خلع الصفات الأسطورية على الغائبين، وتحميل كلماتهم معاني أثقل مما قصدوها، خاصة إذا صدقوا، ولقد صدق الأستاذ عندما قال لي إنه سيذهب ولن يعود قبل وقت طويل، وحسبت أن الوقت الطويل بالنسبة إليه هو شهر على الأكثر، أقل من عام لو تجاوز حد الهزل والجد والدعابة السخيفة.

وأعود إلى نفسي لائما إذ يلوح لعيني الباطنة وجه الأستاذ في ليلته الأخيرة، ألا يعتبر هذا التفكير تنكيلا في حد ذاته، برجل كان غيابه هو الانتصار الوحيد الذي سُمح له به، رجل أفرغ من مضمونه بشكل مفزع ومفاجئ، فلا زوجة ولا مقعد للتدريس ولا إحساس بالأمان الجسدي قبل النفسي، رجل لم يكتسب منعة إلا بغيابه.

سألني الشيخ كأنه يجاريني:

ـ كأنك تقول إن الأستاذ ينتظر أن تخون أمانته ليعود.

ـ لينهي لعبته على الأقل، ربما لن يعود، قد يرسل رسالة، ورقة طلاق، يتصل هاتفيًّا ويشتمنا واحدا تلو الآخر، ربما نشر الأشياء الموجودة على الهاتف على الملأ، لا أدري، تدور أفكار سوداء برأسي، صدقني أنا أحاول أن أمنع تدهور الأمر ليس إلا.

* * *

بعد أن قلت ما قلته سكت الشيخ، وسرنا جنبا إلى جنب وقد انطمرت ذات كل واحد فينا أسفل أفكاره المتراكمة، ولم أفق إلا والشيخ يلتقم يدي بيده ليصافحني، بالطريقة التي يفعلها عندما يريد أن يفارق شخصا قبل أن يسيء به الظن أو تحيله إساءة الظن إلى إساءة الحديث معه، هزها مرتين ثم لم يدعها، استبقاها مصوبا النظر إلى عينيَّ بنظرة طويلة فككت معاني الرؤية من الإبصار إلى البصيرة، وابتسم تلك الابتسامة الماكرة التي رأيتها ترتسم على شفتيه عندما يحاور مخادعا أو أفاكًا، ثم ترك يدي ليضع يده على كتفي وهو يقول ببطء:

ـ مدرك أن الأستاذ أربكك بحكاياته، ومهما قلت لك أو نصحت فالزمن وحده الكفيل بشفائك من هذا الارتباك؛ عندئذ ستعلم أننا منذ نولد ونحن نسعى، السعي هو الحكم على سلوك الإنسان، فالبعض يسعى ليعتق نفسه، والكثير يسعون ليأسروا أنفسهم، كما قال النبي عليه السلام: من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

للحظة طويلة لا أنساها التاث ذهني، وحسبت أن الشيخ انتقل إلى موضوع آخر، ولولا أنني واعٍ لقلت إنني غبت وغفلت، وإلا لماذا سرد هذا الحديث، هذا الجزء بالذات؟ وعندما فهمت انعقد لساني، فقدت الرغبة فجأة في أي جدال، كشخص صُفع على قفاه وهو يبول واقفا، كجائع بصق أحدهم في طعامه فجأة فماتت شهيته، ولعل الشيخ أدرك صعقتي، وفهمها، وربما تقصدها، وهو القائل إن ثمة عبارات تقال فتختصر أعمارا من الفهم، وإن الغثيان وانقلاب المعدة ليسا ـ دائما ـ دليلا على وجبة سامة أو فاسدة، بل ربما كانا دليلا على تلف المعدة وقوة الطعام، ولا أعرف لماذا صُدمت حينها من عبارة الشيخ لي: (من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)، وقد سبق لنا عدة مرات أن تناقشنا بهذه اللغة قائلين مثلا عن فلان الذي لا يأتي للمسجد إلا رغبة في التفخيم الذي يقوم به الشيخ تجاهه إنه من المؤلفة قلوبهم، أو عن فلان الذي لا أمل في إصلاحه إنه من الموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، وعن آخر يتأخر دائما عن الصلاة إنه من الذين خُلفوا، لماذا أفزعني استعمال الاصطلاح هنا، وأنا أعلم جيدا أن استعماله لا يعني بالضرورة أن صاحبه لا تنسحب عليه صفة الكفر كاملة؟ هل لأنني للمرة الأولى أقترب هذا الاقتراب الشديد من الشخص الذي اختصرناه في اصطلاح، تماما كما نقترب من حكايات القتلى في الحروب؟ تعرف همومهم الشخصية وهواجسهم ومدى حبهم لذويهم، كل هذا يجعلك

مترددا قبل أن تدوس على الزناد لتطلق رصاصاتك، أما الشيخ فلعله فقد حاسة الرؤية القريبة من كثرة ما اقترب واكتشف أن الصورة البعيدة أحيانا ما تكون أوضح بكثير وملمة عن القريبة، مع ما في البعد وإطلاق الأحكام الجاهزة من راحة.

هل تصور في هذه اللحظة أنه انتصر على الأستاذ أخيرًا باختصاره في هذا الشكل المجحف، أو تصور أنه لعب دورًا هامًّا في إفاقتي من الوهم، وإعادتي إلى صوابي بصفعة إن كنت سألومه على ألمها وقتا فسأشكره عليها في النهاية، دون أن يدرك أن الجزع الذي انتابني هو ذاته الذي سيكون سببا لعناد أخير سيُبقي الموقف على حالته؟

وبغض النظر عن كل هذا، ستظل الذاكرة قاسية وعشوائية وشريرة، وليتنا كنا انتقائيين فيما يخص الصورة النهائية التي نحتفظ بها في أذهاننا كعنوان للأشخاص الهامين في حياتنا، مدركين لمدى الدمار والظلم اللذيْن نلحقهما بسيرة مليئة بمئات الصور الجيدة، ربما كنا قد اخترنا الصورة الأفضل، أو لحظة وداع مؤثرة، لحظة الموت المهيبة، ولكن الذاكرة تحتفظ باللحظة الأسوأ، مهما بالغ الآخرون في تأنقهم وودهم، وإخلاصهم، غالبا ما تكون الصورة التي نتذكرها عنهم هي الأسوأ، حتى لو لم تربطنا بهم علاقة قوية، يختار الذهن لحظة هزلية؛ لحظة استيقاظ بعينين محمرتين، لحظة قيء، مسح الآخر لأنفه في مفرش المائدة، لعاب سائل من زاوية الفم.

وكما احتفظ الشيخ بهذه الصورة للأستاذ بعد معرفة طويلة بينهما، صورة رجل هاجر إلى امرأة ينكحها فضاع في العدم، احتفظت أنا أيضًا للشيخ بهذه اللحظة كصورة ذهنية له، لحظة أن وضع يده على كتفي في هذه الليلة الشتائية وأمعن النظر في عينيَّ وقال كلمته الأخيرة في أمر الأستاذ، لم أدرك وقتها أن ذاكرتي ستمسك بها، بذهني الكليل وانشغالي والاختلاط الذي ساد كياني، حتى بعد أن توالت عليَّ هذه اللحظة ساعات طويلة بيننا، مليئة بلحظات غضب وضحك وسخرية وسكينة، إلا أن اللحظة التي ظلت والصورة التي تبقت هي صورة رجل يوزع الأحكام على الناس بجهل مطبق.

* * *

عزائي الوحيد أن الأستاذ توقع هذا الفشل في التصور، ولم يحزن له، بل توقع ما هو أسوأ، أن تتفكك الكرامة إلى عناصرها الأولية، أعرف هذا جيدا لأنني رأيته يتحدث عن عبد الله بن المبارك في ليلته الأخيرة كأنه يتحدث عن نفسه، قائلا إن الرجل الصالح لم يذهب إلى الحج بروحه ولم يخلق الله على صورته ملاكا، فخلق ملاك عبث لا يليق بالله (هكذا قال)، وروح الرجل الصالح لم تكن معلقة بالحج، ولا بسفر رفاقه؛ لأنه كان جالسا في دكانه واندهش عندما أتوه بالخبر، بادئا بافتراض، ما الذي يحدث لو أن الهواتف النقالة موجودة على عصر عبد الله بن المبارك؟

وفي حادثته الشهيرة تلك، عندما يرى رفاقه في القافلة شبيهه فيهاتفون النسخة الأصلية منه: أين أنت؟ أنا في دكانتي، كيف وأنت الآن أمامنا؟ يقتربون من شبيهه ويسألونه، هل أنت الرجل الصالح؟ لن تخرج الإجابة عن لا أو نعم، حتى لو كان ملاكا مخلوقا على صورته، فسيجيبهم: لا، لست أنا الرجل الصالح، انتهى، بطلت الكرامة، ويكون هذا شبها، سيناريو آخر، هل أنت الرجل الصالح؟ سيرد عليهم بكل ثقة: نعم، أنا الرجل الصالح، يعطونه الهاتف: خذ إذن وكلم شبيهك، انتهى، بطلت الكرامة، سيكون انتحال شخصية.

ـ آفة فيزياء الكم هي المراقبة، وما يقوله علماء ميكانيكا الكم إن الأجسام الثقيلة فوق الذرية لا يزدوج وجودها (ربما بسبب الجاذبية والهواء والرطوبة) خطأ.

حاولت أن أسايره فسألته:

ـ تريد أن تقول إن فيزياء الكم تقف في صف حكايات الصوفية عن الولي الذي يمكن أن يتواجد في مكانين مختلفين في وقت واحد؟

ـ ما يقوله الصوفيون مختلف عمَّا استنتجته، هذا الازدواج يحدث بلا نية، دون أن يقصده فاعله، ودون أن يشعر به.

ـ أي أن الإنسان قد يعبد الله أو يعصيه، يصلي ويصوم، يقتل ويزني، دون أن يدري!

سكت الأستاذ قليلا ونظر في وجهي كأنه يقيس قدرتي على إدراك ما سيقوله لي:

ـ قال النبي: (إِنّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسّيّئَاتِ. ثُمّ ما بَينَ ذَلِكَ).

ضحكت مندهشا.

ـ الآن بعد أن افترضت فرضيتك وجدت الدليل عليها في الدين.

قال فخورا:

ـ تلميذكما، أنت والشيخ.

لماذا خيل لي في نهاية هذه الليلة أن الأستاذ بحاجة إلى ما قلته تاليا، بطريقة جعلتني أبتعد عن دور المدافع عن الدين ولو قليلا؟ قلت للأستاذ:

ـ ولماذا لا نقول ببساطة إن الناس في هذه الأزمنة الغابرة كان لديهم ولع بالكرامات وإثباتها، وإن أي شبيه كان يتحول ببساطة إلى تواجد في مكانين، خاصة لو كان صاحبه صالحا؟

رد ببعض من فخر، ويأس، وأسف:

ـ انظر إلى من يتكلم الآن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم فكر قليلا وقال:

ـ ما تقوله لا ينفي ما أقوله، بل يثبته، أنا أراقبك إذن أنت شخص واحد، أنا لا أراقبك أنت شخصان أو ثلاثة حتى، أنت كثير، قد تملأ الكون.

ليتني كنت أعرف حين دار هذا الحوار حكاية غلام حامد التي قرأتها في تاريخ الطبري عندما رأى الحلاج وقد ملأ البيت بنفسه من سقفه إلى أرضه وجوانبه حتى لم يعد فيها موضع، هذه الرؤية التي أمرضت غلام حامد بالحمى لمدة طويلة، ولكن الأمور تجري هكذا، بعض الأحاديث ليس مكتوبا لها أن تكتمل إلا في الجنة أو النار.

قلت للأستاذ:

ـ لو أردنا أن لا يراقبنا أحد يمكننا أن نذهب فوق الجبل، في صومعة، على جزيرة.

ـ ربما تكون قد فهمت كلامي بشكل سطحي قليلا؛ لأن مفهوم الوحدة غير مفهوم المراقبة، التخلص من المراقبة مستحيل عمليًّا، فالله تبارك وتعالى يراقبنا بالقدر، والأشخاص في حياتنا يراقبوننا بالرؤية، والتاريخ يراقبنا بالكتابة والحكايات، كل شيء يريدنا أن نكون شخصًا واحدًا، لسنا أحرارًا، قد نقتنص لحظات من الحرية بالمعصية والعربدة وإفساد سيرتنا بين الناس، أو بالقرب من الله والذوبان في بؤرة المراقبة والتسامي عن الجسد، ولكن سرعان ما ينشأ مجتمع يراقبنا من جديد، مجتمع العصاة أو مجتمع الطائعين، ثم نتوب أو ننحرف، وهكذا.

ـ تبدو فكرة جميلة، أن يتخلص الواحد منا من جميع تناقضاته في أشخاص مرادفين يشبهونه.

قال الأستاذ:

ـ بالنسبة إليَّ، لا أفكر حاليًّا إلا في أربع أنفس يمكنني أن أكونها.

ـ أربع أنفس عدد قليل.

ـ وما ذنبي أنك إنسان تناقضاتك كثيرة؟ أما أنا فتتساوى لديَّ خيارات كثيرة في أمور شتى.

ضحكت وضحك، ضحكته كانت أكثر صفاء من بداية الليلة، لاحظت أنه كلما اقتربت الليلة من نهايتها تخفف أكثر فأكثر.

ـ وماذا ستفعل الأنفس الأربع في اعتقادك؟

ـ أعتقد أن الأولى منها ستعيش مع زوجتي ولا تعبأ بالخيانة ولا الإهانة، والنفس الثانية ستختفي من حياتها كرامة لنفسي، والنفس الثالثة ستنتقل من عمل الجامعة المهين إلى مكان يقدرني، والرابعة ستستمر بالعمل بالجامعة حتى أعيد إثبات نفسي.

ـ ولكن كل هذا يمكن أن يتم بعدد أقل من أربع، ثلاث أو اثنتيْن.

ـ غير صحيح، نظريًّا، بل قد يحتاج الأمر عددًا أكبر، فالنفس التي ستعيش مع زوجتي قد تختار الاستمرار في الجامعة أو الانتقال، والنفس التي ستختفي من حياة زوجتي أمامها خيارات أكثر في حياتي العملية، وهكذا، من يدري؟ فنحن لا نخلق الخيارات الخاصة بنا وحسب، بل نخلق الاحتمالات الممكنة لوجودنا ووجود الآخرين من حولنا.

قلت معاندا:

ـ ألم تفكر أنها هواجس رجل يريد أن يلقي اللوم على نفسه دون الآخرين؟

ـ لا، أنت مركز الكون حتى لو أنكرت ذلك، وهل تعلم ماذا اكتشفت بعد تفكير طويل في هذا الأمر؟ اكتشفت أن ما أريده وما أفعله هو ما يجعل الآخرين من حولي يريدون ما يريدونه ويفعلون ما يفعلونه؛ لهذا قال الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، هذا معنى الآية عندي، أنت تقتل نفسك في الحقيقة بقتل الآخر.

* * *

وكأن إحساسه بهذه المركزية قد تفاقم حتى جعله يحيد عن مساره، متيقنا أن الكون سيحيد معه، ولا يأبه؛ لهذا لم ينتبه، في عزلته الطويلة بالمكتبة، وهو يعد خطة هروبه، ولم يفكر لحظة أن فيها عنصرًا ناقصًا، أو زائدًا عن الحاجة، كأنه تعمد أن يتركه، وأن يكون الأسوأ، كما يفعل ولد شقي في يومه الأخير بالمدرسة، يلطخ جدران الفصول بكف يده بعد أن يغمسها في الطين، يبول في الردهات، تاركا أثرا بالسلب بعد أن فشل كثيرا أن يترك أثرًا إيجابيًّا. في ذهن زوجته ترك صورة العابث والماكر المخاتل، أما ابن عمها الذي لا يحتاج لحيثيات لكراهيته فاستقرَّ في يقينه

أن أستاذ الفيزياء مجرد فاسق منحرف الميول، حتى الشيخ، ما الذي قاله له حتى وصمه بالرجل المهاجر إلى امرأة ينكحها؟

لم أقابل رجلا سعى إلى تشويه سيرته بهذا الدأب، حتى عند أستاذ الجامعة الذي التقطني من الطريق بسيارته ذات يوم، وبمجرد أن عرف اسمي واسم بلدتي أخذ يسألني بحذر إن كنت أعرف الأستاذ فأجبته الإجابة المعتادة: أعرفه من بعيد، كما يعرفه جميع من في البلد، سألني عن أحواله فأبديت جهلا مطبقا زهدا في الحديث، ولكن حيلتي أتت بعكس ما قصدته، شرع يحكي لي أن الأستاذ رافقه ستة أشهر في نفس هذه السيارة، ذهابا وإيابا، قلت لأجامله: لا بد أنها كانت صحبة مثمرة، أعني أن أستاذيْ جامعة معا في سيارة وكل هذا الطريق، نفى قائلا: لا لا، كان من النوع الصامت، حتى هاتفه كان صامتا مثله، تصور أنه لم يرد على هاتف قط وهو معي في السيارة، إلا أن هذه لم تكن أكثر عاداته غرابة

ـ أليس كل رجال العلم غرباء في أطوارهم؟

ـ نحن رجال علم عاديون يا بني، ما تقوله ينطبق على أينشتين أو جاليليو.

ـ أعترف أنه كان به بعض من غرابة الأطوار كما يحكي ناس بلدتنا عنه.

قلت لأنهي الموضوع، ولكنه استمر قائلا:

ـ لكن ما سأحكيه لك موضوع آخر.

قال وسكت، منشغلا بالطريق إلى أن تنهد:

ـ لو فتحت الآن درج التابلو هذا الذي على يمينك لوجدت به أغراضًا عديدة، الغالب عليها أنواع من حبوب مخدرة ومقوية للجنس يتحفني بها من آن لآخر بعض من آباء الطلبة، ظانين أنها الرشوة الأمثل لرجل في عمري (يضحك)، ولولا أنني أستاذ جامعة محترم لبعتها، ولكني أستعملها لتسهيل الأمور، في المصالح الحكومية وما شابه، مسح مخالفات المرور قبل تسجيلها على الطريق، إنها عملة شائعة؛ لذا تجد لديَّ منها دائما فائض بدرج التابلو، يظل قابعا فيه حتى تتلفها الحرارة أو تنتهي صلاحيتها، أيهما أسبق؟ ذات يوم وأنا أنظف السيارة اكتشفت أنها ناقصة، لم أشك على الفور، ولكني عاهدتها بالعد فوجدت أنها تنقص بقدر مستمر ثابت.

ـ شككت في الأستاذ؟

ـ استغرق الأمر وقتا حتى أشك فيه، وشككت قبله في كل شخص يدخل سيارتي.

ـ شك بعيد ويطرح أسئلة، مثلا كيف يأخذها؟ يغافلك مثلا وأنت تقود.

ـ لا، كنت أنزل من السيارة عدة مرات خلال الطريق؛ فأنا رجل تمتلئ مثانته بسرعة.

ـ ولماذا لم تقطع علاقتك به عندما اكتشفت ذلك؟

ـ لسببين؛ الأول أنني اكتشفت هذا الأمر مؤخرا، والثاني أنه لم يفتح الدرج من تلقاء ذاته فقد أخبرته أكثر من مرة بمكان هذه الحبوب، وعرضت عليه أن يأخذ منها فرفض وقد احمر وجهه خجلا.

ـ ربما أخذها بناء على عرضك السابق.

ـ هكذا فكرت، ولكني شكاك، وعادة ما أجري الاختبارات على من حولي في هذه الأمور بشكل منتظم، ولا أستطيع التخلص من هذه الصفة، معرفة ما وراء الحكايات؛ فأنا ابن تاجر قبل أن أكون أستاذ جامعة محترمًا؛ لذا وضعت له أشياء كثيرة؛ ولاعة غالية، ساعة ثمينة، قلم حبر، ولم يمسها، لم يكن يأخذ إلا الحبوب، نوعًا ثابتًا منها، وبمعدل استهلاك منتظم، استهلاك رجل ـ واعذرني لقول ذلك ـ يخون على زوجته عشرات النساء؛ وهذا ما أثار قلقي عليه؛ لأنه زميل قبل كل شيء، واجهته خوفا على صحته العامة، هذه الأشياء لها أعراض جانبية، وفي عمره، اسمح لي أن أقول: كان لا يزال صغيرًا، وبهذا المعدل، خلال سنة أو سنتين سيصل إلى مرحلة مخيفة لا أود أبدا أن يصل إليها.

ـ وبماذا أجابك عندما واجهته؟

ـ غضب، وسألني: هل تظن أنني أخون زوجتي؟ فأخبرته أنه ليس موضوعنا، خن زوجتك يا صديقي كما تشاء، ولكن لا تتناول

هذه الحبوب بهذا المعدل. أعرف أصدقاء تقيئوا دما عندما أكثروا من تناولها، ولكنه ظل مصرًّا على أن نجعله موضوعنا، ويبدو أن اكتشافي وكلامي جرحاه بشدة، وأخذ يسألني هل أظن فعلا أنه يخون زوجته.

ـ ولكنك كنت واضحًا في أسباب قلقك.

ـ لا أعرف، الصراحة أنه كان ينفر من تلك السيرة؛ الخيانة، أستاذ جامعة مجتهد، من البيت لسيارتي ومن سيارتي لمحاضراته، ولا يغادر مقعده في المكتبة العامة التي ينتظرني فيها حتى أمر عليه في عودتي، وفي الأيام الأخرى أنا واثق أنه يمكث في بيته لا يغادره، متى سيخونها؟ والسؤال الأهم: متى سيخونها مع امرأة يستهلك كل هذه الحبوب من أجل التعاطي معها؟ لا، لا أظن أنه كان يخون زوجته أبدا، ولعدة مرات جربت أن أفتح معه مواضيع عن نساء، حاولت أن أشركه في غزوة سريعة، ولكنه ظل ينفر من سيرة الخيانة، ولا ينفر من سيرة الخيانة إلا رجل نظيف جدًّا، أو رجل خانته زوجته. نعم، لا تندهش، وإياك أن تصدق قصص السينما، لا يوجد رجل تخونه زوجته فيذهب ليلقي بنفسه في أحضان امرأة أخرى.

ـ جيد، في البداية ظننته يخونها، وفي النهاية هي من تخونه.

ـ أستغفر الله، لا هذا ولا ذاك، لماذا تصر يا بني على حصر الحوار في هذه الزوايا الحرجة؟ أنا رجل كل ما أردت معرفته: لماذا يتناول زميل أهتم بأمره حبوبًا أكثر من معدل استهلاك رجل؟

ـ ولماذا لم تسأله مباشرة؟

ـ ألم أسأله؟

ـ أقصد، لماذا لم تصر على أن يجيبك إجابة واضحة؟

ـ لو رأيت وجهه عندما سألته لكرهت نفسك، وزال منك كل فضول، ليبتلع الحبوب كلها لو أراد، ولكني لا أريد أن أرى هذا التعبير على أي وجه مرة أخرى.

ـ لم تعرف السر إذن؟

ـ لا، بل إنه توقف عن المجيء معي، في اليوم التالي اتصلت به ولم يرد، أغلق هاتفه بعد المرة الثانية، وبعدها بأيام عرفت أنه سافر خارج البلاد.

* * *

محاولة تحديد الوقت الذي توقفت فيه زوجة الأستاذ عن زيارة أمي ولماذا، على سبيل التقريب، أمر متعذر، كنت أغيب وأعود، وفي الفترات الطويلة التي أغيبها عن البلد أنتهي من دراستي بالجامعة، ألتحق بعمل سيئ بالعاصمة، ثم أتركه إلى عمل أقل

سوءا، أنشغل بحياتي وأنغمس أكثر وأكثر في مشاكلي الخاصة، يموت أبي، ينتقل الشيخ للخدمة في مسجد آخر بعيد، لكن في كل مرة أعود أجد من يمسك ذراعي من الخلف وأنا أسير في الشارع، أو يناديني، يأتي للجلوس بجانبي بعد انتهاء الصلاة، إلا أن الأمر الجيد أن الآتين لمناقشتي صاروا يأتون وقد تجهزوا للفشل، لمجرد المشاركة فقط، ويراودني إحساس مضاعف أنني صرت مأتمًا يحرص الجميع على حضوره ولو متأخرين، لكن من ناحية أخرى تتاح لي الفرصة لتأملهم، أنظر في وجوههم وهم ينطقون كلماتهم المكررة، هل يدرك هؤلاء نوع (الشيء) الذي يطالبون بإعادته، أم أنهم يطالبون فقط بتجريد رجل يريد أن ينصر قضية أخلاقية بدافع أخلاقي أيضًا؟ ربما يظنون أن الشيء الذي بحوزتي ذهب أو أوراق هامة، وأتعجب، هل كنت مثلهم من قبل، في قضايا أخرى، مستعدًّا للنقاش في موضوع المعلوم فيه أقل من المجهول عنه؟ لكن عندما أفكر أجد أن هذه هي الطريقة الأمثل لننصر قضية خاسرة لوقت قصير، أن لا نفهم كل شيء؛ فكل قضية في هذا العالم يعتريها العوار في جزء منها، فلا يكون أمامنا إلا أن نحصل على التكريس بالتغييب.

ولأكون صادقا، لم يكن كل من طالبوا به مغيبين. فذات مرة جاءتني رسالة على الفيسبوك، تصفحت الصور المنشورة للرجل الذي أرسلها فوجدتها أقرب ما تكون إلى ملامح الأستاذ لو صار لون بشرته أقل بياضا، واختفى اللغد الصغير أسفل عينيْن أكثر بروزا،

مع شعر رأس منحول بطريقة لا تصنعها السنوات التي مرت، كأنها صورة من برنامج تضع له صورتك وأنت شاب فيخرجها لك وأنت عجوز، إلا أن ما نحل رأسه لا يبدو له أثر على صفحته المفرغة من الحياة، لا صورة له داخل معمل دراسي أو بين طلبة أو حتى على شاطئ، لا أحد يحتضنه ويهنئه بعيد ميلاد أو ترقية ولا يحتضن هو أحدًا، كلها صور لرجل جالس أو واقف، وحيدا في خلفية من أثاث بارد، لا كلاب ولا قطط ولا بشر، لا شيء يجعلني أصدق الرسالة غير المفعمة بالود والتي أرسلها لي: مرحبا، الأخبار وصلتني، أشكرك على إخلاصك الجم، لديك شيء يخصني، سأرسل رجلًا ليأخذه، لا تخبر أحدًا.

حتى العبارة المرسلة بدت وكأنها مرت من برنامج للترجمة الفورية.

ولكن الرجل الذي أتى كان حقيقيًا، ملابسه الغريبة وسنة من فضة لمعت في فكه العلوي وهو يرشف كوب الشاي الذي أعددته له ولم يتركه من يده إلا بعد أن أنهاه تاركا ثمالته يعبث بها الذباب، لا أعرف كيف خمن أنني سأكون موجودا بالبيت هذا اليوم بالذات، أشهر لي بطاقته الشخصية وبدا مستعدًا لتقديم الضمانات كافة إلا المال، فهو ـ كما تفضل وأخبرني ـ لا ناقة له ولا جمل في هذا الأمر، بل إنه دفع أجرة المواصلات من جيبه؛ خدمة لابن أخيه المتوفى والذي هاجر لإتمام دراسته في ألمانيا بالجامعة التي يعمل

بها الأستاذ. سألته: كيف ستصل الأمانة إلى الأستاذ فأخبرني أن ابن أخيه في إجازة ولكنه منشغل بإعداد أوراق ولقاء أهل وأحبة، وهو ـ بنفسه ـ من تبرع بإحضار الشيء الذي طلبه منه الأستاذ. كانت البطاقة الشخصية لا تزال في يدي، نظرت لها نظرة واحدة لأعرف أن عمره أقل مما يبدو عليه، خمسون عاما، والمهنة عامل في مصنع الزيوت والصابون بطنطا. تأملت ملابسه التي لا تزيد عن قميص أزرق باهت من الكتان وبنطال من قماش انتهت موضة تفصيله منذ عشرين سنة. بدا لي بقيافته المصطنعة مقنعا أكثر من الرجل على حساب الفيسبوك، ومن عبارته المرسلة، إلا أنني رفضت إعطاءه شيئًا، وبعكس لا مبالاته التي دشن بها حديثه استولت على ملامحه الصدمة الكئيبة عندما أخبرته بذلك.

هذا الرجل الذي ظننته للوهلة الأولى يندرج تحت لواء صنف من الناس لا يحتاج أن يكون مغيبا أو مبصرا ليطالب بشيء لا يعرفه، فالموت والمرض مجرد حالتيْن للتواجد لا تثيران في أنفسهم إيمانا ولا كفرا، بعد صمت قليل استأنف الحديث ليسألني سؤالا لم أسمعه من كل من سبقه: هل الشيء الذي أرفض إعطاءه له قيم وغالي الثمن لهذه الدرجة؟ وبقدر احتفائي بالسؤال تجاهلت الإجابة عنه، ولم تبدُ على الرجل أي نية في الانصراف، واستعد لخوض جولة أخرى من النقاش مفضلا ذلك على أن يعود خالي الوفاض لابن أخيه. تخيلت الموقف، ابن الأخ المتعلم في بلاد بره، ربما يدير له عمه أموال

أبيه أو أنه وصي عليها، ربما تزوج أمه وصار والده المستعار، أو يضع عينه عليه لابنته الوحيدة للزواج منها، كل هذه مواضع تدفعه للاستماتة وقد اختار مهمة الكبار من بين عشرات المهمات؛ مهمة تخليص وحمل أمانة وتفاهم مع غرباء وإعطاء انطباع بالثقة بشكل كافٍ ليسلموه ما له قيمة قصوى عند أستاذ ابن أخيه، كان فشله في أداء مهمته فشل جيل في إثبات قوامته على جيل آخر وهو ما لا يريد السماح بفشله فيه، حتى لو تنازل بقبول مساعدة بسيطة؛ وبذلك أخبرني أنه على استعداد ليتصل بابن أخيه هاتفيًّا فيكلمني ويضع لي البراهين، لكني أرحته من كل هذا وأفهمته أنها ليست أزمة ثقة.

ـ كل ما في الأمر، أن الشيء الذي أتيت لأخذه مني، طلبه مني الكثيرون بعد غياب الأستاذ، واضطررت للقسم أكثر من مرة إني لن أسلمه سوى لصاحبه، ولو علم الآخرون أنني أعطيته لرجل غريب فسأقع في مشاكل جمة.

كنت أكذب، ليس لأنني تجاوزت مرحلة أن تسبب لي الأمانة أي مشكلة؛ بل لأن إحساسًا ما كئيبًا يخبرني بأنني لن أسلمها ولا حتى للأستاذ لو قدم بشحمه ولحمه، وكان هذا الإحساس مستقرًّا عميقًا في أبعد مكان يمكنني الوصول إليه وإدراكه، بدون إمكانية التعامل معه ومناقشته وتفنيده. حالة من التصلب التي تثير الضيق بمجرد ذكرها، جعلتني أود التخلص بأقسى الطرق

من وجود عامل الزيوت والصابون، كما تتخلص من وجود بعوضة على ذراعك بضربة قوية ستؤلمك أكثر من القرصة، ولو عن طريق إعطائه أجرة المواصلات التي يطنطن بها كلما جددت رفضي.

ـ ما هذا؟

فح بحقد كأنه أهين وهو يشير إلى المال الذي وضعته على صينية الشاي، لو أن عامل الزيوت والصابون مجرد شخص أرسلته الزوجة أو من له صلة بها فسيكون قد أتقن دوره أكثر من المطلوب، يمكنني أن أشهد على ذلك بضمير مرتاح.

* * *

انتظرت أن تصلني رسالة تأنيب واحدة من حساب الفيسبوك الخاص بالأستاذ، أو يزورني الطالب قبل عودته إلى ألمانيا كما توقعت وراهنت على ذكائي، لو كانت الحكاية صحيحة لكان الأمر سيتجاوز مجرد رسالة وزيارة، لم يحدث شيء، كان رجل الزيوت والصابون هو ختام المشيعين، ساد هدوء مريب بعدها، ولأول مرة منذ بدأ الأمر أجدني أشرع في تفكير مختلف؛ بسبب صدق لهجة رجل الزيوت والصابون، مجاهدا في اعتصار ذاكرتي لأهتدي إن كان الأستاذ قد ذكر خلال حديثه معي أنه قد يرسل من يأخذ الهاتف في غيابه، بلا جدوى، لم يذكر ذلك قط.

إعادة تركيب حديث دار في ليلة واحدة، مليء بالاستدراك والمراوغة، محاولة ينتج عنها كثير من الفوضى بالذاكرة، أحيانا كنت أتذكر جملة لم تثبت فكرتها في ذهني، أو فكرة لا أجد لها في سياق الحديث أثرًا، ففي هذه الليلة تكلم الأستاذ كثيرا، أقام أساسيات ثم نقضها في غمضة عين، وربما في غفلة مني، الآن أتذكر عبارة قالها الأستاذ لا أعرف كيف لم أتذكرها من قبل، هل بعد أن تراخت قبضة الجميع عن قبضتي، تراخت قبضتي أنا أيضًا؟ فتذكرت العبارة التي قالها لي الأستاذ: وفي حال أنك سمعت بموتي أرجو أن تعطيه لزوجتي.

أهذه عبارة قالها فعلا، أم أنشأها الهوى ومنطقية الأشياء في ذاكرتي؟

ترددت كثيرا، حتى لو قال الأستاذ هذه العبارة بالفعل، فهل تحققت شروطها؟ أقصد، هل مات الأستاذ؟ لا، لكن كل هذا الغياب لا يمكن أن تختمه عودة، والزوجة رغم كل ما قاله الأستاذ عنها ظلت زوجة، كان بإمكانها أن ترفع قضية طلاق بدعوى الغياب وانقطاع الخبر، متى ستصبح هذه العبارة صالحة للاستخدام، بعد عام آخر مثلا؟ وما الفارق؟

في كل مرة تقريبا، أخرجت الهاتف من مخبئه وشرعت في ارتداء ملابسي، أتوقف في مرحلة لا أتوقف عندها في المرة التالية، أخرج ثم أعود، أقطع مسافة إضافية في المرة التالية،

في نوبات ترددي هذه سرت ـ في عالم الوهم والحقيقة ـ في الطريق إلى بيتها ألف مرة ربما، في الشتاء والصيف والربيع والخريف، في أيام خارج هذه الفصول الأربعة، ولا مرة تشبه المرة الحقيقية، الواقع كان أشد قسوة من حقيقته، الأرض أكثر صلابة والسماء أكثر تجريدا، كنت أعلم أن أباها هجر بيته ليقيم معها، ولكني عولت على كهولته أن تكون هي من ستفتح لي الباب. وقفت هناك مؤطرا بنظراتها المندهشة، ليس في استطاعتي أن أعثر على كلماتي الأولى، وقد تبخرت نيتي في أن أسخر من الرجال الذين دأبت على إرسالهم، أو ظننت أنها دأبت، تبخر حديث طويل عن الأمانة، وأحاديث أخرى عديدة، بدون حديث إطلاقا مددت يدي بالهاتف الملفوف في قماطه ودسسته في يدها واستدرت راجعا.

هل شعرت بالتخلص من عبء ثقيل حينها أنني خفيف كريشة، أم شعرت بالندم واكتساب لعنة جديدة؟ لم ألبث طويلا لأستكنه مشاعري الجديدة، سمعتها تناديني، فوقفت واستدرت، أتت ناحيتي، لا تجري ولا تمشي ببطء، توقعت أشياء كثيرة متناقضة، أن تشكرني، أو تحتقرني، أن تشد على يدي أو تبصق في وجهي، ولكنها لم تفعل. جذبت يدي وفردت كفي ووضعت فيها الهاتف مرة أخرى، بلا تعليق، بالطريقة التي نعيد بها الأشياء إلى الأطفال الأشقياء إذا أعطونا أشياء لا قيمة لها وهم يظنون أنها ذات قيمة فائقة. لم تخبرني أن أحتفظ به حتى يعود الأستاذ، أو لتحترق أنت

والأستاذ معا، بله اشرب ميِّته، لم تعلق، استدارت وانصرفت وتركت للهواء مهمة غلق الباب، كانت الكبرياء بحجم الإهانة التي لحقتني، لا أنكر أنني فوجئت، كرجل تلقى لكمة بلا سابق إنذار، بعد أن تحفز طويلا، حتى صار التحفز جزءًا من سماته الشخصية، ولكنها لكمة بدلا من أن تؤلمه أراحته، وهناك نوع خاص من التعب تريحنا منه الضربات القوية، هناك نوع من دوشة الرأس لا تشفيه إلا ضربة بالحذاء، وأنا من كثرة ما اختلطت الأمور اختلطت أنا نفسي، ولأول مرة أجد ترتيب الأمور في ذهني واضحا بلا تناقضات، بل بشواهد عدة تقول إن زوجة الأستاذ لم تهتم قط باستعادة هاتفها، بل بتصحيح ما حكاه لي الأستاذ في الساعات التي مكثها معي؛ ربما على أمل أن تصل هذه التصحيحات إلى الأستاذ من خلالي، ولمرتين أو ثلاث في أثناء الأحاديث التي دارت بيننا يكتسب الأستاذ صيغة الحضور القريب، كأنه مختبئ خلف نافذة المطبخ، أو أنني أسجل له حديثها وأنقله، صيغ مثل: (قل له: سيعرف عاجلا أو آجلا، اعتمد على ذكائه في الفهم) وهكذا.

كل الذين اهتموا بإعادة الهاتف بدوا خائفين من عودة الأستاذ ووقوع الهاتف في يده مرة أخرى، من أرسلوا الناس مرارا وتكرارا لكيلا يشار إليهم أو يظهروا في الصورة، لا أعرف من يكونون، ربما الأخت الكبرى أو زوجها، وابن عمها بكل تأكيد، وكلما زاد تشبثي زاد خوفهم، لو عرفوا أن المعركة ستنتهي بهذه الوقفة المريعة والدهشة من غرابة مشاعري، وقد تضاءلت

قيمة الهاتف فجأة في يدي، لدرجة أن أصابعي كادت تنفرج عنه ويسقط، كأنني أقبض على ماء.

تنهدت أمي وقالت وهي تختلس النظر إلى وجهي وأنا أغلق الباب بعد عودتي: ليتني ما فتحت الباب.

يمتد خيط من كلمة (ليتني) ليغزل أحداثا لم تحدث، وينقض أحداثا حدثت بالفعل، ويتفكك بعدها ويتركني حزينا على أشياء كثيرة، لكن الحزن على الأمور التي لم تكتمل يظل أشدها وطأة، حزنًا بلا تبرير ولا علاج، وكلما تقدم العمر وتعتقت الذكريات في الرأس دوختني رائحتها، وتعبأت بالمجاز، وتحول هذا الحزن ليشبه أكثر ذلك الحزن الكوني المصاحب لنشوء أحاسيس مستحيل أن تكون حقيقية ولو بالتضحيات، أو بالخيانة.

دخلت غرفتي، وفي رأسي أفكار كثيرة، ماذا أفعل؟ أرتعد ارتعاد عاشق ضعيف، ملحوظ، عارٍ وأعمى، أوغل حبه في حيز المستحيل حتى صار ضربا من الجنون، وجدتني أفكر في كتابة ما حدث، ولكن لمن أكتب الآن، بعد أن مضى الوقت الذي وجب فيه أن أبرر للآخرين، لمن اختلفوا معي بشكل خاص، ولمن وقفوا متفرجين، بعد أن فقدت الرغبة واختفى جزء كبير من أبطال الحكاية، وتغيرت الوجوه كما تتغير الفصول، من ربيع لخريف لشتاء وصيف؟ أي رغبة في الحديث تأتي بعد زمن طويل من اللوم الضاري والسكوت عليه؟

ولكننا نحتفي بالألم بعد مروره، وكلما زادت شدته زاد الاحتفاء به، خاصة إذا خلّف الألم فائدة، كالبلوغ، والحرية، وما استفدته يعادل ذلك، إن لم يكن يفوقه، عندما اكتشفت أن الكبار ـ قبل الصغار ـ يشيدون عالما من ورق، وأن الأخلاقيين ـ قبل المنفلتين والفاسدين ـ يبدءون في نقض الأساسيات بالاستثناءات؛ فالكذب ـ حسب قولهم ـ ليس شرًّا كله، وخيانة الأمانة ليست خيانة في مواقف معينة، نحن نعيش في عالم فضفاض، ولكن هل الكتابة حل ينهي ما بدأته زيارة أستاذ جامعة ذات ليلة، أم أنه نوع آخر من مخاتلة النفس بالمماطلة، والتلكؤ، الاحتفاظ بالمشهد الأخير لي، رغم يقيني أنني بعد كل ما حدث لم أعد أصلح لأكون شاهد حق؟ فلست أدرى ما الذي غيرته النفس من أحداث حكايتي، وما الذي بقيَ منه على حقيقته، ما الذي سيتغير بعد ذلك، لقد ارتكبت أكبر حماقة ممكنة بتسليمها الأمانة قبل قليل، فهل كانت البروباجندا الأخلاقية التي صدعت بها رءوس الجميع حماقة مفتون؟

* * *

بعد أن أصبح ما دارت عليه المعارك قديما عملة قديمة فقدت قيمتها الشرائية ولم يمتد بها العمر بعد لتصبح أثرية، ما طالب به الكثيرون باللكمات والصفعات والفضائح لم يعد أحد يطالب به ولو بابتسامة، استقر الهاتف الملفوف بالبلاستر القوي في مكان أخير، لم أعد أهتم بنقله إلى مكان آخر، أو إخراجه من مخبئه

والاستغراق في تأمله، هذا الغرض الصغير الذي طالما راودتني مشاعر عديدة متناقضة بشأنه؛ الإغراء والكراهية، الفضول تجاهه والنفور منه، وفي خيالي، بكوابيس اليقظة وأحلام حقيقية، كثيرا ما عشت عودة الأستاذ وزيارته لي، مطالبته بتسليمه الأمانة، عجزي عن العثور عليها، في جزء من حلمي كنت أظل عاجزا باحثا بلا جدوى، وفي جزء موازٍ كنت أجدها وأسلمها له ثم أكتشف بعد أن ينصرف أنني خُدعت وأنه شخص آخر تماما، حينها كنت أتبعه في الحلم، أجري، أجد نفسي وأنا أصعد سلالم طويلة مرهقة في أبنية ضيقة كالمنارات بدون نوافذ أو كوى، وأسير في شوارع ضيقة خلفية حتى نهاية الحلم.

عندما أستيقظ أحاول أن أتذكر أين وضعته آخر مرة، دفنته في جوال أرز، أم وضعته خلف رصة الكتب العتيقة الخاصة بي، فوق دولاب الملابس الذي لا تستطيع أمي الصعود إليه إلا بمعونتي، علقته بأستك بلون الدهان أعلى هلال الأرج، أم تركته طافيا داخل بالونة من البلاستيك في خزان الماء؟ لا أنكر أنه جاءت عليَّ أوقات فكرت في أن أتخلص منه بالحرق، أن أرميه في البحر وأسجل فيديو وأحتفظ به للأستاذ إذا جاء، لأي أحد إذا سأل عنه، ولكني لم أفعل، حتى بعد أن بهتت صورة الأستاذ بداخلي، وانقطع السبيل بالولاء الذي اختصصته به في ظل غياب تراكم عليه تراب النسيان.

كنت مدركا منذ البداية لماذا حكى لي الأستاذ حكايته، أقامني قاضيا على زوجته لأغفر لها (وقد لا أفعل)، وأعطاني الهاتف، لأعطيه لها (أو لا)، يذهب ذهني إلى مناطق نائية في التفكير، صحراء من الأسئلة العبثية، أسأل نفسي مثلا: ماذا لو أعطيته لها منذ البداية؟ هل سجل لها رسالة أخيرة؛ وداعًا، تأنيبًا، خطة عودة وغفرانًا؟ هل كان ظن الأستاذ في محله بالثقة بي، أم أنني تجاوزت توقعاته، وضيعت عليه فرصة العودة؟ أتخيل الأستاذ وقد سجل رسالة أخيرة في هاتفها، يطلب منها إشارة أن يعود، ويختنق الآن بالانتظار والكبرياء في منفاه البعيد، أيًّا كان الأمر، إنها كلمات انتهت صلاحيتها الآن.

أكانت حسبة أعقد من أن أفهمها وأن يفهمها الآخرون؟ لماذا أشعر أحيانا أن مثاليتي تحك أنفها وتسخر مني، وكل ما ادعيت أنني التزمت به بلا مقابل بمجرد أن ألتفت إليه يخرج لي لسانه ويعابثني كأنه يطلب مني أن أعترف بأن التزامي كان بثمن أفدح من أن أناله، متواريًا داخل نفسي؟ أتكون المثالية الزائدة عن الحد في أحد وجوهها عقدًا مع الشيطان، والشيطان يعطينا المستحيل نفسه مقابل ذنب واحد، أن نعتقد أننا نستحق هذا المستحيل، ولكني لم أفهم في حينه؟

ربما سيجد أحد أبنائي الهاتف بعد أن أموت ويقوم بفتحه ويفهم ما لم يكن بإمكاني أن أفهمه، قد يبكي أو يسخر من تعصب

أبيه، هل سيلتمس لي العذر الذي لم يلتمسه لي أحد؟ أنا الوحيد الملوم، هل هناك من هو أبأس مني في هذه الحكاية؟

* * *

رأيت زوجة الأستاذ في المرة الأخيرة قبل أن أعكف على كتابة هذه الأوراق في موقف سيارات الأجرة، تهبط من ميني باص وهي تحمل أكياس خضراوات وفاكهة أكثر من مئونة لشخص واحد، لا زال والدها يقيم معها، أتت عينها في عيني ومررتني، ربما لم تتذكرني أو تجاهلتني، ووجدتني أتساءل: أهذه هي بطلة الحكاية الرهيبة التي قلبت حياتي رأسا على عقب؟ بدت منشغلة ومرهقة، ولعلها أحسنت أداء دور امرأة غاضبة من سرقة أشيائها، كما أحسنت أداء أدوار كثيرة من قبل، إلا دور امرأة نادمة على أن لعبة صغيرة بدأتها وكبرت عن مقاس الحقيقة، تذكرت كل ما خضته واشتممت رائحة القلب الذي تغير كثيرا؛ من أجل الدفاع عن شيء لم تعد له قيمة.

إن الزمن لا يطرح الأسئلة العظيمة، ولا يجيب عنها، ولكنه ينزع من قلوبنا الرغبة في معرفة إجاباتها، في عالم تنتصر فيه المرأة بالانتظار، الانتظار فقط دون أن تحرك إصبعا، بينما يكسب الرجال الحروب ويخسرونها بالتوازي، ويزعمون أنهم يغيرون التاريخ بينما يحركونه فقط من الطرف إلى الطرف النقيض.

خسر الأستاذ معركته، لا أشك في ذلك، تقص اللوعة قلبي بمقصها البارد وأنا أتصوره يفكر في زوجته، ورسالته التي افترضت

وجودها وأنها لم تسمعها، منتظرا رد الفعل عليها. يصيبه اليأس كل يوم، ويتجدد في اليوم التالي الأمل، متى فقد الأمل، أتصوره لسبب ما وتغزو البرودة قلبي عندما أتمثله، رغم أن الشمس تلتهم المكان، في ساعة الظهيرة بالمكتبة، وقد تناول نصف حبة تلك التي كان يختلسها من درج تابلو السيارة ليزور بها جسده المهجور منذ فترة طويلة، وعندما تمس الشمس ظهره يسخن جسده وتستيقظ حواسه، بدفعات بسيطة يكتشف أنه منذ مراهقته وشبابه وبعض المرات في سنوات زواجه، لم يشعر بانتصاب واحد قوي كهذا، بل كل ما كان يحصل عليه هو عديد من الانتصابات العصبية المفزوعة، ولا شيء يجعل الرجل بعد سن الأربعين راضيا عن الحياة قدر انتصاب قوي، انتصاب دبق، يتسلل إذ يضيق به قماش الشورت الداخلي ويجد طريقه بتوجيه بسيط خلال فتحة الساق، مثل حلزون، يصبح ساقا ثالثة، في طور النمو، ساقًا طفولية، تحمل كل ما تحمله الطفولة من نزق، وتهور، واستهانة بالقيم والأخلاق والحياء العام، تتأرجح وتحتك فتزيد قوة إيمانها بذاتها، وتنتصب أكثر، الآن يعلم حكمة الخالق أنها لم تكن عضلة، تنمو بالمران وتتحرك حسب الرغبة المباشرة، بل أوعية عفريتية تمتلئ حسب هواها وتستمتع بما تشاء، وتجعله راضيا ومستكفيا، بلا ضغينة، ولا تعقيدات، متفهما إحساس ثنائيات الجنس، أن يشعر بالمتعة في أن ينكح جلد ساقه الوادعة، هل سيكون فرحا لو ضاع هذا الانتصاب على امرأة؟ إنه يشبه ضرب الرأس في الجدار للتخلص

من الصداع، التخلص من ألم بألم أكبر منه، يحاول أن يتذكر متى شعر بهذا الأمان، ربما في بطن أمه ولكنه لا يتذكر، أو في طفولته الأثيرة وهو ملتصق بظهر أبيه على الدراجة النارية، مسافران سفرا طويلا، الظهر متعرق، ورائحة الكهرباء الإستاتيكية تفغم أنفه، أشبه بالخوخ إذا تحول إلى كهرباء، أو الكهرباء إذا تحجرت إلى ثمرة خوخ، ماسورة العادم الملتهبة هي موطئ قدمه الوحيد، مفرشح مثل طفل خُتن لتوه، يلصق خده وأذنه بظهر أبيه، وللظهر حركة ذاتية، تتحرك فقراته تحت الجلد كما تتحرك حنجرة في حلق رجل خشن، والأصوات ترن في داخله كما ترن في صالة واسعة لكنها دافئة بحركة الدم المحبب، وأصوات تفاعلات الهضم المقدسة تسرنمه وتصعد به، وتختمها رائحة البنزين غير المحترق بالكامل، مثل ختم لابد أن يمر به في صعوده وهبوطه، في انعتاقه وعودته إلى الأسر، لكم تمنى في هذه الأيام البعيدة أن يغوص في عظام ولحم ظهر أبيه للأبد ويعيش هناك.

أشعر بالبرد الآن، أرتعد، ربما أنا على وشك الإصابة بالحمى، أريد أن أثرثر وأثرثر ولا أصل إلى السطر الأخير، ما حكمتك يا رب من تمرير هذه الحكاية بعالمي؟ لا شيء في قدرك عبث، فما الذي يجب أن أفهمه، أنا الساقط في منزلة بين المنزلتين، بين العوام والخواص، فلا أنا أدركت الطمأنينة ولا تمتعت بالهيولى؟ وتلك مأساة المحايد، أن المتخالفين يجعلونه نائبا عنهم في معاركهم؛ لأنه لم ينحز، ما الذي يجب أن يفهمه رجل في بداية

العقد الرابع من عمره، يقف في محطة سيارات أجرة يرقب امرأة تنوء بحمل أكياس عديدة؟ يحاول الاحتفاظ بمشهد صورتها وهي تهبط من ميني باص مجعدة الملابس وقد ألصق العرق ملابسها بظهرها ومؤخرتها (مؤخرة مجعدة كمؤخرات الجامعيات)، دافعا الشعور بالذنب إلى أن يجرف قلبه كالسيل بتخيلات تجعلني أكرهها، لماذا لم ترفع دعوى الطلاق، هل حرصًا على امتلاكها للبيت، أم ماذا؟

ابنة القاضي العتيدة، المرأة التي طوعت كبرياءها واحتقارها، والوحيدة التي نجت من آفات الذهن الكليل التي طالت الشيخ والأستاذ؛ لسبب لا أعلمه، كلما أغمضت عيني اختفت المرأة الحقيقية من المشهد وظهرت الأخرى التي تحتفظ ذاكرتي لها بمشهد منتزع من السياق، في مطبخ أمي النظيف والذي لم يكن نظيفا قط بهذه الطريقة، في صورة مركبة من صورة حقيقية وأخرى متخيلة، الأطباق والأكواب المغسولة تقطر الماء الشفاف في الحوض الفارغ، تقبض بأطراف أصابعها على كوب من الشاي تشرق الشمس من خلاله، ولكن لا تضاهي إشراقة ابتسامتها ووجهها وهي تضع لي تشابكات وطلاسم لأحلها في الطريق الطويل إلى قلبها، لنبدأ حكاية لم ولن أرويها أبدا.

* * *

أغسطس ٢٠٢٢

مكتبة
t.me/soramnqraa

ماذا لو صُرح لك بسّر كبير؟... تخيل نفسك في مُناقشة فلسفية عميقة مع أستاذك، تبحثان معًا في حقيقة قصة عبد الله بن المبارك، الرجل الصالح الذي شوهد في مكانين في وقت واحد: في البيت الحرام يحج، وفي دكانه في مدينته، وفسر الناس ذلك بأن الله أرسل ملاكا يحج نيابة عنه لأنه ساعد بأموال حجه امرأة مسكينة.

هل يُمكن أن يكون مُجرد روحٍ خرجت منه؟

تجعلك تلك المناقشة أكثر قربا من أستاذك، فيهديك هاتفًا مُغلقًا كأمانة، ويطلب منك ألا تُسلمه لأحد إلا بعد سماع خبر موته. يخبرك الأستاذ بسر ذلك الهاتف وأنه ملك لزوجته، ولكن مع اختفائه في ظروف غامضة، تُصبح هذه الأمانة عبئًا ثقيلًا على كتفيك. تلاحقك زوجة الأستاذ، وتصبح حياتك مُعلقة بحكاية الهاتف وأمانته.

«شبح عبدالله بن المبارك» رحلةٌ مُذهلة في عالم الغموض و التشويق و العِبر.

ماجد طه شيحة؛ روائي مصري، مواليد ١٩٧٨، بمحافظة كفر الشيخ. صدرت له مجموعتان قصصيتان: «كل الحبال الرديئة»، و«متاهة الغول»، وأربع روايات: «سلفي يكتب الروايات سرًا»، و«درب الأربعين»، و«إيلات»، و«المعبر». حاصل على جائزة محمود أمين العالم في القصة القصيرة في دورتها الأولى عن قصة «أشياء البحر».

دار الشروق
www.shorouk.com

مكتبة
t.me/soramnqraa